تجديد البيان في تقريب القرآن

الجزء 2

كتبه نورالدين

الجزء الثاني من كتاب "تجديد البيان في تقريب القرآن"

مقدّمة

ما زلت منذ شرعت في هذا المشروع في خير وعافية وفراغ يسّرها الله لي، وهذا دعاني إلى الإسراع في السير قدمًا في تقريب الآية تلو الآية، والسورة تلو السورة، ثمّ بدأت السور تطول، ولكي لا يطول كلّ جزء من هذه الأجزاء فقد عمدت إلى حجم الجزء فاتّخذته معيارًا للفصل بين كلّ جزء وآخر.

ينتهي هذا الجزء عند نهاية سورة الأعراف، ويغطّي 16 سورة من سور القرآن، فهو تتمّة للجزء الأوّل الذي توقّف عند مرحلة بداية الجهر، أي بعد نزول سورة النجم وقبل نزول سورة عبس، وتستمرّ مرحلة الجهر المكّيّة، وهي كما تعلّمنا ليست فكرة الإعلان، فالنبيّ سبق ودعا كبار قريش حسب الذي فهمناه من نصوص الآيات، ولكنّ الجهر هنا هو تلاوة القرآن على زوّار مكّة وفي الأسواق، وهو ما سبب التفاعل الذي سيكون محور السور القادمة.

ولقد بدأنا خلال هذا الجزء نصطدم بصورة شبه صريحة مع أقوال المفسّرين الأجلّاء الذين نحترمهم، لكنّهم قالوا أقوالًا لا يطرحها النصّ القرآنيّ، متأثّرين بالسياق الذي تعلّموه فيه، فهم وقعوا ضحيّة تأطير معرفيّ ظهر في أحكامهم على معاني الآيات، وجعلهم لا يعملون أدوات العقل واللغة التي نعرف أنّهم يمتلكون منها حظًّا عظيما.

وفي سبيل الحرص على وضع منهج للقراءة والالتزام به، فإنّنا ألحقنا بهذا الجزء مقالا غير متخصص بسورة واحدة، لكنّه النهج الذي نتّبعه للتعامل مع السور الطويلة، فهو تعديل للمنهج لا أكثر ليكون تناول السورة الطويلة ممكنًا.

وكذلك فإنّني سأختم بمقال عامّ يلخّص مقولات الوحي منذ سورة العلق حتّى سورة الأعراف، فيكون في هيئة نقاط هي محاور الوحي حتّى تلك اللحظة، ثمّ يكون لنا عودة إليها فيما بعد.

وبما أنّني أكتب هذه المقدّمة بعد أن فرغت من تقريب سورة الأعراف، فإنّني سأسير على سنّة استننتها سابقًا في الجزء الأوّل، بأن أبيّن ما بدا لي من مواضع الخلاف الرئيسة مع التفسير التقليدي خلال الجزء الثاني.

ومواضع الخلاف هي:

1. **في المنهج العام:**

- **أولوية النص القرآني وسياقه الداخلي:** الاعتماد بشكل أساسي على لغة القرآن وسياقه الداخلي وترابط آياته لفهم المعنى، مع الحذر الشديد من فرض سياقات خارجية (أسباب نزول غير قطعية أو خارجة عن سياق الدعوة، روايات تاريخية أو

إسـرائيلية مشـكوك فيها) قد تُوجِّه المعنى أو تناقضه.

- **فهم القصص القرآني:** النظر إلى القصص القرآني باعتباره يركز على العبرة والموعظة {فاقصص القصص لعلهم يتفكرون}، وليس بالضرورة سردًا تاريخيًا دقيقًا لكل التفاصيل، مما يستدعي الحذر من استنتاج أحداث أو تفاصيل لم يصرح بها النص أو لا يقتضيها السياق اللغوي المباشر، ورفض الروايات الخرافية التي تتنافى مع منطق القرآن.
- **التعامل النقدي مع الموروث التفسيري:** احترام جهود المفسرين السابقين مع عدم التردد في مراجعة أقوالهم إذا بدت متعارضة مع ظاهر النص اللغوي أو السياق القرآني العام، أو إذا كانت مبنية على افتراضات متراكمة أو روايات ضعيفة.

2. في تفسير قصص الأنبياء:

- **قصة داود (في سورة ص):** التشكيك في التفاصيل الدرامية (المتعلقة بزوجة أوريا مثلًا) التي لا يذكرها القرآن، والتركيز على عبرة الفتنة في

الحكم، والتسرع المحتمل، وضرورة الأوبة والرجوع إلى الحق، وأهمية التحذير من اتباع الهوى للحاكم.

- **قصة سليمان (في سورة ص):** رفض التفسيرات الشائعة لـ {مسحًا بالسوق والأعناق} بأنها قتل للخيل، وتفضيل المعنى اللغوي الأقرب (المسح للتوديع أو التطهير الرمزي)، وكذلك رفض الروايات الخرافية حول فتنة {ألقينا على كرسيه جسدًا} وتفضيل تفسير لغوي يربطه بصبغ أحمر (دم) كإنذار بالموت أدى إلى الأوبة. وتفسير {الشياطين} المسخرة له بأنهم قد يشملون المهرة المتمردين من البشر ذوي القدرات ("الشياطين" بالمعنى اللغوي للبعد والشطط من جذر شطن).
- **قصة أيوب (في سورة ص):** رفض رواية ضرب الزوجة، وتفسير {اضرب به ضغثًا} بأنه وصفة علاجية بالأعشاب، وتفسير {لا تحنث} بأنه رفع للعزلة المفروضة بسبب المرض وليس كسرًا ليمين متعلق بالضرب. وتفسير {مسني الشيطان} بأنه قد يشير لمرض شديد متسارع أو وسوسة مصاحبة للبلاء وليس مسًا جسديًا مباشرًا من كائن خارق.

- **قصة أصحاب السبت (في سورة الأعراف):** ترجيح تفسير {كونوا قردة خاسئين} بأنه حكم بالذل والصغار والهوان والانقياد المذل (الإقراد: وهذا هو المعنى الثابت لغة)، وليس بالضرورة مسخًا حقيقيًا لصورة قردة، انسجامًا مع لغة العرب وروح القرآن في التركيز على العبرة الأخلاقية.
- **قصة فرعون وقومه:** التنبيه إلى أن القرآن يؤكد تدمير حضارتهم وآثارهم {ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون}، مما قد لا يتفق مع بقاء آثار الحضارة المصرية القديمة، وعليه فليس بالضرورة أن يكون فرعون موسى هو أحد ملوك حضارة وادي النيل في مصر المعروفين تاريخيًا، فالقرآن لم يحدد مكانه أو زمنه بدقة.

3. **في تفسير بعض الظواهر أو المعجزات:**

- **انشقاق القمر (في سورة القمر):** ترجيح كونه علامة مستقبلية للساعة استُخدم لها الفعل الماضي للتحقق، أو تعبيرًا مجازيًا عن وضوح الأمر وانكشافه، في مقابل الرواية التقليدية بحدوثه كمعجزة حسية ماضية، وذلك لعدم وجود دليل قاطع في السياق القرآني المباشر يدعم الرواية

الأخيرة، بل إن السياق (الإعراض الفوري عن أي آية) قد يضـــعفها، لأنّ الله كما رأينا في هذا الجزء يرفض فكرة الآيات الخارقة ويعلّم الرســـول أن يهمل من يطلبها.

4. في فهم بعض المفاهيم والمصطلحات:

- **آدم وحواء والخطاب بالجمع:** تفسير الخطاب لآدم غالبًا بأنه خطاب للنوع البشري، وتفسير استخدام صـيغ الجمع في الحوار مع آدم وزوجه {أنفسـنا}، {اهبطوا} بأنه قد يشـــمل النوع أو يشـــمل إبليس معهما، وليس بالضـرورة دليلًا على وجود كائنات أخرى معهما في الجنـة وقت الحدث كما تذهب بعض التفسيرات.
- **الملائكة وإبليس:** فهم "الملائكة" كقوى كونية أو موجودات خاضـعة لأمر الله، وأن عصـيان إبليس لا يعني بالضـرورة كونه من جنس الملائكة نفسـها (الذين {لا يعصـــون الله ما أمرهم}) بل كان كائنًا ضـــمن "مُلك" الله اختار الاســتكبار والعصـــيان. وتفســـير اســـم "إبليس" لغويًا (الميؤوس منه) و "رجيم" (المبني على الرجم أي التخرّص والظن الباطل).

- **الجن:** الإشـــارة إلى أن الكلمـة لغويًـا قـد تعني الكائنـات المســتترة أو الأمم المجهولـة بالنســبة للمخاطَبين، دون الحصــر بالضــرورة في المعنى الشائع للكائن المخلوق من نار.
- **الوزن والميزان:** التأكيد على أن الوزن يوم القيامة هو وزن معنوي للعمل والصـفات وقيمة الإنســان بناءً على معيار الحق والعدل، وليس وزنًا ماديًا أو عدًّا رقميًا للحسنات والسيئات.
- **الأعراف ورجالها:** ترجيح كون "رجال الأعراف" ملائكة أو جماعات على مكان مشــرف بين الجنة والنار، وليسـوا بشـرًا اسـتوت حسـناتهم وسـيئاتهم كما هو شائع.
- **الميثاق الأول {ألســت بربكم}:** طرح فهم بأن هذا الميثاق قد يكون إشـــارة إلى الفطرة أو إلى تجدد أخذه من ذرية آدم عبر الأجيال والرســـل، وليس بالضـرورة حدثًا واحدًا تم في عالم الذر قبل الخلق المادي، بدليل تعليل الآية نفســـها {أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشـرك آباؤنا}.
- **النبي الأمّي:** الإشارة إلى المعاني اللغوية المحتملة لكلمة "أمي" غير "الذي لا يقرأ ولا يكتب"، كالنبي

المرسـل إلى الأمم، أو النبي من أم القرى (مكة)، أو النبي من قوم ليس لهم كتـاب منزل من قبـل. (وهو ما يحتاج تفصيلًا أوسع لاحقًا).

- **الشـيطان:** التفريق بين إبليس ككائن محدد، وبين "الشيطان" كمفهوم أوسع يشمل كل متمرد أو بعيد عن الحق (شـاطن)، أو حتى كوسـاوس النفس وشطحاتها (كما في قوله {مسني الشيطان بنصب وعذاب} لأيوب أو {ينزغنك من الشـيطان نزغ} للنبي).
- **معنى الرحمة:** لفت الانتباه إلى أن معنى الرحمة في السياق القرآني قد يتسع ليشمل القدرة والسعة الإلهية، بالإضافة إلى معنى العطف والشفقة.

هذه أبرز النقاط التي بدا فيها منهجنا اللغوي السـياقي النقدي يفضـي إلى نتائج تختلف عن بعض التفسـيرات التقليدية المتداولة خلال السور التي تم تناولها في هذا الجزء.

أخيرًا، أعيد التذكير أنّ هذه الكتيّبات أو الكتاب المزمع إنجازه، ومقالاته التي تنشـر مفردة على المدوّنة، إنّما هي رفيق قراءة لمن يقرأ القرآن ويريد أن يعيه، وأن يتجاوز مجرّد الترديد بحثًا عن الثواب، وأن تكون هذه القراءة قراءة كلّيّة تراعي سـياقه الواقعي من زمان ومكان وأسـباب نزول راجحة.

فهو ليس للمجادلة ولا يكتب وثمّة نيّة مبيّتة لاســـتخراج معنى مخصّـــص، غير أنّني التزمت منهجًا لغويًّا واقعيًّا عقلانيًّا في القراءة، ويمكن أن تلتزم المنهج ذاته وتأتي بأمور غابت عنّي.

مقالات القرآن العظيم 21 | سورة عبس

نصل في ترتيب النزول التقريبي الذي نسير وفقه (مع التذكير بأنه اجتهادي) إلى سورة "عبس"، وهي السورة الثالثة والعشرون وفق بعض الترتيب الذي اعتمدناه. تأتي هذه السورة في مرحلة من الدعوة المكية أصبح فيها التمايز بين طبيعة الإقبال على الرسالة واضحًا. فقد تعرض القرآن في سور سابقة لظاهرة الاستغناء والتعالي لدى بعض وجهاء قريش وأشرافها (مثل ما ورد في العلق، والقلم، والمزمل)، مع إظهار كونهم يستأثرون بالمال ولا يعطون الفقراء، فكان القرآن يحضّ على الإحسان إلى الفقير واليتيم، وفي المقابل كان القرآن يعلّم النبيّ أن يدعو الناس ويترك كبار قريش لربّهم وعقاب ربّهم في الآخرة الذي لن يكون من جنس نعيمهم في الدنيا. هذه السورة تعالج موقفًا دقيقًا يلامس هذه الثنائية: ثنائية الإقبال على من يُظنّ فيه التأثير والمنعة، أكثر من الإقبال على من يبدو ضعيفًا حتّى لو طلب الهدى بصدق.

وكما جرت العادة في كتب السيرة والتفسير، تروى حادثة محدّدة سببًا لنزول هذه الآيات الأولى، تتعلق بعبد الله بن أم مكتوم، وهو رجل ضرير، جاء إلى النبي يسأله أمرًا، بينما كان النبي مشغولًا بمحاورة بعض سادة قريش أملًا في إسلامهم الذي قد يجلب إسلام أتباعهم، وكما سيظهر في السورة فقد كان سادة قريش يهزؤون أو يستنكرون، ما

أغضب النبيّ، فلمّا جاءه الرجل الضرير يسأله أمرًا لم يدر في خلده أنّه يطلب الهدى، إذ قد كان في موقف جدال وتصدٍّ لجهالة الزعماء، فربّما فهم النبيّ كلام ابن أمّ مكتوم على أنّه امتداد لسخرية قريش، فتركهم مغضبًا، وترتيب الأحداث هنا مهمّ، وخلق النبيّ يدلّنا على أنّ هذا هو الترتيب السليم، فيستبعد في حقّه وهو على خلق عظيم أن يكون ترتيب الأحداث مقلوبًا، فيكون قد تولّى عن رجل يسأله في سياق طلب الهداية، ثمّ أقبل على سادة قريش الذين سبق له أن دعاهم فسخروا منه.

ومنهجنا في التقريب يدعونا، مع عدم إغفال السياق التاريخي المحتمل، إلى النظر أوّلًا في بنية النص القرآني ذاته ودلالاته اللغوية والسياقية المباشرة. فالقرآن، وإن كان ينزل في سياق أحداث معيّنة، فإن خطابه غالبًا ما يتجاوز الحادثة المباشرة ليؤسّس لمبادئ وقيم كلية. اللافت هنا أن الخطاب في مطلع السورة جاء بصيغة الغائب: "عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ"، وهذا الأسلوب البلاغي الرقيق قد يحمل في طياته توجيهًا لطيفًا للنبي في كيفية الموازنة بين مراتب الناس في الدعوة، أو قد يكون، وهو الأظهر في رأينا، تعميمًا لحالٍ قد يقع فيه أي داعية حين يزن الأمور بميزان التأثير الدنيويّ الظاهر. فالله تعالى يضع هنا المبدأ الأساس: قيمة طالب الحقّ المقبل بقلب وجلٍ وحبّ للتعلّم، تفوق قيمة المُعرِض المستغني وإن بدا ذا شأن ومَنَعة بالمقاييس الاجتماعيّة.

إضاءات لغوية

- **عَبَسَ:** من الجذر (ع ب س)، وهو تقطيب الوجه وظهور أثر الكراهة أو عدم الارتياح عليه. وهو تعبير ظاهر عن انقباض باطن.
- **تَوَلَّىٰ:** من الجذر (و ل ي)، وتعني الانصراف عن الشيء.
- **ٱلْأَعْمَىٰ:** وصف لمن فقد نعمة البصر. وذكره له دلالة بيانيّة؛ فهو لا يبصر انشغال الداعية، مما يجعل الإعراض عنه أشد إيلامًا، فهو لا يعرف سببه.
- **يَزَّكَّىٰ:** أصلها "يتزكى" من الجذر (ز ك و) الدال على الطهارة والنماء وتجاوز الذات نحو الآخرين فيكون زكيّا كالعطر، وقد سبق شرح الزكاة وسبب تسميتها. وكلمة لعلّه تعني أنّ الضرير لم يكن مسلمًا إذ ذاك.
- **يَذَّكَّرُ:** أصلها "يتذكر" من الجذر (ذ ك ر). وصيغة "يتفعّل" المدغمة أيضًا، تفيد محاولة التذكر وبذل الوسع لقبول الموعظة والانتفاع بها.
- **ٱسْتَغْنَىٰ:** من الجذر (غ ن ي). وصيغة "استفعل" تدل على إظهار الغنى وتكلف عدم الحاجة، أو الشعور بالكفاية الذاتية التي تمنع من قبول الحق.

- **تَصَدَّىٰ:** أصلها "تتصدى" من الجذر (ص د د) والتصدي للشـــيء هو التعرض له والإقبال عليه بالكلّيّة ومقابلته باهتمام، فنقول تصـــدّى للهجوم أي حاول ردّه، ونقول أيضًـــا تصـــدّى للأمر أي تكفّل به. وفيها مقابلة بلاغية واضحة لفعل "تلهّى" الذي قوبل به السائل الآخر.
- **تَلَهَّىٰ:** أصـــلها "تتلهى" من الجذر (ل هـــــ و). وهو التشاغل والانصراف عن الأمر الأهم بما هو دونه. فيه معنى الغفلة والإعراض عن الجدير بالاهتمام، وهذا نراه قرينة على ترتيب الأحداث كما نظنّه.
- **تَذْكِرَةٌ:** اسم من (ذ ك ر) لما يُتذكر به. والتنكير للتعظيم، أي أنها تذكرة عظيمة الشـــأن جامعة. وهذا تأكيد لقيمة الوحي في مقابل المواقف البشرية المتباينة منه.
- **صُـــحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ:** تتالي الصـــفات هنا "مكرمة، مرفوعة، مطهرة" يعلي من شأن هذه الصحف التي تحمل التذكرة، فهي معظمة عند الله، عالية القدر، مصـــونة عن أي باطل أو نقص. وهنا علينا الانتباه إلى أنّ القرآن نزل وحيًا لا في ألواح أو صـــحف، فهذا يعدّ مجازًا على اعتبار ما سيكون، كقولهم كرمة خمر، فهي كرمة عنب لا خمر، ولكنّهم علموا أنّ هذا العنب زرع ليكون خمرًا.

- **بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ:** السفرة، جمع سافر أو سفير، من (س ف ر) بمعنى الكشف والإظهار للكاتب، والسفير بمعنى الوسيط بين الله والرسول، أي الملائكة الذين يسفرون به (ينزلون به). ووصفهم بـ"كرام بررة"، وهذا يؤكد علو مكانتهم وشدّة طاعتهم وصلاحهم، وهذا قبل تخصيص كتبة للوحي.
- **قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ:** هذا ليس إخبارًا بل صيغة لإبداء السخط، تعجب بلغ الغاية من شدة جحود الإنسان وكفرانه. "ما أكفره!" صيغة تعجب سماعيّة تفيد المبالغة في كفره، أي محاولة التغطية على الحق والتشويش عليه. الالتفات المفاجئ في الخطاب من الحديث عن الوحي وحملته إلى هذا الذم الشديد للإنسان يحدث هزة قوية في السياق.
- **مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ... مِن نُّطۡفَةٍ...:** الاستفهام هنا للتقرير والتذكير بالأصل المتواضع جدًّا الذي لا يليق به الكبر والجحود. والإجابة المباشرة "من نطفة" تؤكد هذا الأصل.
- **خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ، ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ...:** ترتيب الأفعال بالفاء وبعد ذلك بـ"ثم" يرسم لوحة متكاملة لتدبير الله للإنسان منذ نشأته. "قدره" أي سوّاه وأتقن خلقه وجعله على مقدار معين وهيأه لوظيفته. "السبيل يسره" يشمل تيسير

خروجه جنينًا، وتيسير طريق معاشه، وربما تيسير طريق الاختيار والهدى. العطف بـــ"ثم" يفيد التراخي والتدرج في مراحل العناية الإلهية.

- **أَقْبَرَهُۥ:** من الإقبار، أي جعل له قبرًا يوارى فيه. وليس ضروريًّا أن يقبر الميت ليحقّ فيه هذا الفعل، فالقبر في أصله يحمل معنى الطيّ والنسيان، فالميّت مقبور وإن كان أحرق أو أكلته الأسماك.
- **أَنشَرَهُۥ:** من النشر وهو البسط والإحياء بعد الموت، وكأنّه كان مضمومًا أو مطويّ الذكر كما تقدّم في تعبير مقبور.
- **كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ:** "كلا" حرف ردع وزجر عن حالة الكفران والجحود. "لما يقض" تعبير دقيق يفيد النفي القاطع مع توقع الحصول في المستقبل، أي أن الإنسان لم يفِ بعد بما كُلف به، ولا يزال مقصرًا حتى زمن الخطاب، وفيه معنى استمرار التقصير، ولمّا كان الحديث عن الإنسان بالمطلق فهذا يعني أنّه يموت ولم يفِ بما عليه من حقّ لله.
- **فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ، أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا...:** الأمر بالنظر هنا ليس مجرد رؤية، بل دعوة للتفكر العميق في آية الطعام اليومية. استخدام ضمير العظمة "نا" في "صببنا، شققنا، أنبتنا"، وتأكيد الفعل بالمصدر

"صــبًّا، شــقًّا" فيه قوّة وإظهار للقدرة الإلهيّة في عمليّة إنزال المطر وإنبات الزرع المعقّدة.

- **تعداد النعم (حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْـبًا...):** التفصـيل والتنويع في ذكر أنواع النباتات ("القضــب": العلف الأخضــر، "الأب": الكلأ والمرعى، وهو ما نبت في الأرض دون زراعـة) يظهر ســعـة العطـاء الإلهي الـذي يشــمـل ضــروريات الإنســان ورفاهيته، ويشــمل طعام أنعامه أيضًـا. وهي فيها ترتيب جدير بالتأمّل. هذه اللوحة الغنية للعطاء تقابل مشهد الجحود الإنساني.
- **ٱلصَّآخَّةُ:** الاسم نفسه له وقع صوتي قوي يوحي بالشدة والهول، وهو اســم ليوم القيامة يؤذن بنهاية القدرة على سماع الأصوات الدنيوية وبدء عالم آخر، والصاخّة هي الصيحة أو نحوها مما يذهب بالسمع والإدراك.
- **يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ...:** تصـوير بلاغي مؤثر لعمق الهول وانقطاع الأواصـر في ذلك اليوم. التدرج في ذكر الأقـارب من الأخ إلى الأبوين فـالزوجـة والبنين، قـد يعكس ترتيب عمق الروابط ذاتها في الدنيا.
- **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْــفِرَةٌ... وَوُجُوهٌ... عَلَيْهَا غَبَرَةٌ...:** فن المقابلة هنا يبلغ ذروته في رسـم مصـيرين متناقضـين. الأوصاف الحسية المشرقة (مسفرة، ضاحكة، مستبشرة) مقابل الأوصـاف القاتمة (غبرة، قترة) ترسـم صـورة لا

تُنسى للنعيم والجحيم، وللرضا والخزي. وكلمتا غبرة وقترة تحيلان إلى من تعرّض للغزو فبقي على وجهه غبار المعركة (غبرة)، وذهبت طاقته وماله (قترة).

- **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ:** أسلوب قصر وحصر باستخدام ضمير الفصل "هم"، يربط بشكل حاسم ونهائي بين تلك الوجوه المظلمة وبين حقيقتهم التي كانوا عليها في الدنيا: الكفر (الجحود والتغطية على الحق) والفجور (المعصية والتمرد). فالجزاء كاشف للعمل، والمظهر نتيجة للمخبر، فهم كفرة لأنّهم يشوّشون على الوحي، وفجرة لأنهم يفجرون في الخصومة.

مقالة السورة

كيف يُقطَّبُ الداعية الوجهُ ويُعرَضُ حين يأتي طالبُ هدىً لا يملك من ظاهر الدنيا شيئًا؟ أهذا بسبب كونه ضريرًا! وما الذي يدريك، أيها المُعرِض، لعلّ هذا السائل كان بطلبه الصادق هذا يتلمّس طريق الطهارة والنماء، أو كان يرجو أن يتذكر كلمة حقٍّ فتنفعه الذكرى التي جئتُ بها؟ في المقابل، أنت تُقبِلُ نحو الذي يُظهر استغناءه وكبرياءه وتهتمّ به، ولا تبعة عليك إن هو أصرّ على ضلاله ولم يتطهّر! أمّا هذا الذي جاءك يسعى بجدّ، تبدو عليه الخشية وصدق الطلب، فأنت تتشاغل عنه، مع أنّ هذا هو واجبك!

كلا! إنّ هذه الرسالة التي أُنزلها ليست إلا "تذكرةً" عاليةَ الشأن، متاحةً لكلّ من أراد أن يتذكّر ويتّعظ، لا فضل فيها لغنيّ على فقير. وهي محفوظةٌ في أصولٍ مكرّمة، مكانتُها رفيعة، مطهّرةٌ من كلّ زيف، يحملها وينقلها وسطاءُ كرامٌ طائعون أبرار، وهذه الصفات حريّة أن تكون في الداعية الذي يبلّغ رسالة ربّه.

قُبحًا لهذا الإنسان، ما أشدّ جحوده وكُفرانه بنعمي! أينسى كيف ومن أيّ شيء خلقته؟ ألم أخلقه من ماء يحتقره؟ فقدّرته وهيّأته في أطوارٍ متقنة. ثم يسّرتُ له سبيل الحياة. ثم إذا انتهى أجله، أمَتُّه وأذهبت ذكره كأن لم يكن. ثم إذا شئتُ، أخرجته من قبر النسيان حيًّا للحساب. كلاّ! رغم كلّ هذا الخلق والفضل والتدبير، فإن هذا الإنسان لم يؤدِّ بعدُ ما أمرته به، وما يزال مُقصّرًا!

فلينظر هذا الإنسان إلى أقرب النعم إليه: طعامه. كيف أنزلنا نحنُ بقدرتنا المطرَ من السماء صبًّا، ثم شققنا الأرض بقدرةٍ فأنبتنا فيها أنواع الحبوب، والعنب اللذيذ، والعلف الأخضر، والزيتون والنخيل، والحدائق الغنّاء الملتفة، وسائر الفواكه المتنوعة والمراعي. كل ذلك متاعٌ لكم ولأنعامكم.

ولكنّ هذه النعم والمهلة لن تدوم. فاستعدوا وتذكروا: فإذا جاءت صيحة المدوّية الرهيبة التي تصمّ الآذان من شدة هولها، الصاخّة، وهي يوم القيامة، يوم يفرّ الإنسان مذعورًا

من أقرب الناس إليه: من أخيه وأمه وأبيه وزوجته وبنيه، لا يلوي على شيء. فلكلّ امرئٍ منهم يومئذٍ حالٌ وهمٌّ يشغله عن سواه. وهنالك، تتمايز الوجوه وتنكشف المصائر: وجوهٌ تتلألأ نورًا وبشرًا، ضاحكةٌ مستبشرةٌ بما أعددتُ لها. ووجوهٌ أخرى يعلوها غبارُ الذلّ والخزي، وتغشاها ظلمةُ الكآبة والحسرة. من هم أولئك؟ أولئك هم الذين جمعوا في الدنيا بين الكفر بما أوحيته من وحي، والفجورِ في خصومة عبادي.

المعنى الشمولي

تضع سورة عبس ميزانًا إلهيًا لتقييم البشر في سياق الدعوة، يتجاوز المظاهر والمقامات الدنيوية إلى عمق القلوب وصدق النوايا. فالمعيار الحقيقي الذي تؤسسه السورة هو الرغبة الصادقة في التزكية والتذكر، والخشية الباطنة، وليس الغنى أو الجاه الظاهر. العتاب الافتتاحي، بصيغته البلاغية، يؤسس قاعدة دعوية وأخلاقية راسخة: لا ينبغي أبدًا أن يكون الحرص على استمالة المتكبرين المستغنين سببًا في الإعراض أو التلهي عن المستضعفين المقبلين بقلوب خاشعة.

ثم تنتقل السورة لتعلي من شأن الرسالة ذاتها، فتصفها بأنها "تذكرة" محفوظة في صحف عالية القدر، مطهرة، ينقلها رسل كرام أبرار، مذكّرة من ينقلها بصفاته الواجبة عليه، وهي متاحة لكل من يشاء، مما يؤكد استقلال الوحي عن المواقف البشرية المتقلبة تجاهه.

بعد ذلك، تكشف السورة بعمق عن التناقض الصارخ في الحالة الإنسانية من خلال انتقال حاد في الخطاب: فيض النعم الإلهية على الإنسان في الخلق والرزق والتدبير، يقابله جحود (كفر) وتقصير مستمر عن الغاية التي خُلق لها ("لما يقض ما أمره"). الدعوة إلى النظر في آية الطعام هي نموذج لكيفية التفكر في آيات الله المبثوثة في الكون والنفس، والتي تدل على الخالق وتستوجب الشكر بدل الكفران.

أخيرًا، تقدم السورة مشهدًا حيًا وحاسمًا ليوم القيامة ("الصاخة")، حيث تنكشف الحقائق وتتلاشى الاعتبارات الدنيوية، ويواجه كل إنسان مصيره بناءً على عمله. تستخدم السورة أسلوب المقابلة البلاغية ببراعة في تصوير المصيرين المتناقضين للوجوه (المسفرة والمغبرّة)، ثم تربط بشكل قاطع بين ظلمة الوجوه وبين صفة "الكفرة الفجرة"، لتختم السورة بتأكيد القانون الإلهي في الجزاء: فالعاقبة الأخروية هي انعكاس مباشر للاختيار الإنساني في الدنيا بين الإيمان والطاعة، أو الكفر والفجور.

ويلاحظ قارئ السورة أنّها تتصدّى للمستكبرين بدورها، فالله قد أمر نبيّه بأن يترك أمرهم له، ولم تذهب مذهب مواساة الضعيف الضرير، إلّا ما جاء انتصارًا له في مطلعها، وهذه قرينة على أنّ الخصومة كانت على أشدّها من جهة المتكبّرين المشوّشين على الوحي.

مقالات القرآن العظيم 22 | القدر والشمس

بعد سورة النجم بدأ الجهر، وكان أوّل ما نزل من القرآن بعدها سورة عبس التي قرّبنا معناها في المقال السابق، ثمّ تأتي هتين السورتين، مباشرة بعد أن صدع النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة جهرًا، وأصبح القرآن يُتلى في فضاء مكة العام، لم يعد همسًا في دوائر ضيقة، بل إعلانًا يتحدى المنظومة السائدة أمام الملأ.

وهنا نحن أمام الوحي المطلق غير المتعلّق بوقائع ذلك الزمن، فتأتي سورة "القدر" (24 في ترتيب النزول التقريبي) ثم تتبعها سورة "الشمس"، لترسم كل منهما جانبًا من الصورة الكلية للرسالة في طورها الجديد. فسورة القدر تأتي لتؤكد المصدر العلوي والجلال المطلق لهذا القرآن الذي يُجهر به الآن، مبرزةً القيمة الاستثنائية للحظة الوحي الإلهي، بينما تأتي سورة الشمس لتضع ميزان المسؤولية الفردية أمام هذا الوحي المعلن، مستشهدة بالتاريخ ومستنطقةً آيات الكون والنفس.

أولًا: سورة القدر

إضاءات لغوية

- **إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ:** التأكيد بـ(إنّ) وضمير العظمة (نا) في (أنزلناه) يفيد الجزم واليقين بعظمة المُنزِل (الله) وعظمة

المُنزَل (الضمير يعود على القرآن الكريم). (أنزلناه) من الجذر (ن ز ل)، والإشارة هنا إلى بدء إنزال القرآن في ليلة مخصوصة.

- **لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ:** (القدر) من الجذر (ق د ر) الذي يجمع معاني التقدير والحكم (تقدير الأمور وقضاؤها)، والمقدار والشرف والمنزلة العالية (ذو قدر)، والقدرة والقوة. فهي ليلة الحكم والتقدير، وليلة الشرف العظيم، وليلة تجلّي القدرة الإلهية. اختيار الليل (ليلة) ميقاتًا للإنزال له دلالاته العميقة، فهو وقت السكون والتأمل والاتصال الروحي وتلقي الأسرار الإلهية، وكلّ ما فيها من صفات هي صفات الوحي ذاته الذي نزل فيها، لا صفات الوقت المخصوص، وإن اعتقد الناس ببركة خاصّة بها.
- **وَمَآ أَدْرَىٰكَ:** أسلوب استفهام بلاغي للتهويل والتعظيم لشأن ليلة القدر أي لشأن الوحي الذي بدأ نزوله فيها. (أدراك) من الجذر (د ر ي) بمعنى أعلمك وأطلعك، فالخطاب هنا يقر بأن إدراك حقيقة هذه الليلة وعمق شأنها فوق متناول العقل البشري لولا إعلام الله به.
- **خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ:** (ألف) في لسان العرب كثيرًا ما تستخدم للدلالة على الكثرة البالغة لا الحصر الدقيق. والمعنى هنا ليس مجرد تفضيل العبادة في تلك الليلة، بل

هو أعمق؛ إن لحظة واحدة من الوحي الإلهي، أو تجلٍّ للحقيقة الربانية في تلك الليلة أو في أي ليلة ينزل فيه، أو أمرٍ يُقدّره الله، لهو خير وأبقى أثرًا وأنفع من ألف شهر (أي زمن طويل جدًا) يقضيه الإنسان في تدبيره الخاص وتفكيره المحض وتخطيطه البشريّ القاصر في أي شأن من شؤون الحياة. إنها إشارة إلى القيمة النوعية الفائقة للحظة الاتصال الإلهي مقابل امتداد الجهد الإنسانيّ المحض. وكم من مسألة علميّة حلّتها لحظة إلهام أو حلم رآه العالم المشغول بها!

- **تَنَزَّلُ:** أصلها (تتنزل) من الجذر (ن ز ل). صيغة (تفعّل) تفيد التتابع والكثرة والنزول مرة بعد مرة خلال تلك الليلة، للدلالة على كثافة وحيوية النشاط الملائكي فيها.
- **ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ:** جمع ملاك، وقد سبق ذكر أنّهم من وكّلهم الله ممن يملك أمرهم، فهم رسل الله وقواه المنفذة لأمره. نزولهم المكثف دليل على أهمية الحدث والصلة الوثيقة بين السماء والأرض فيها.
- **ٱلرُّوحُ:** الروح في العربية كلمة لها قصّة، فيقال أروحت الجثة أي خرج ريحها، ولمّا ربط الناس بين خروج الريح وذهاب قوّة الحياة، باتت الروح سرّ الحياة، ولكنّها هنا قوّة من الله، وإفراد الروح بالذكر بعد الملائكة يدل

على تميزه وعظيم شـــأنه. والأظهر، في ســـياق إنزال القرآن، أنه جبريل عليه السلام، الملاك الموكل بالوحي. ذكره يضفي جلالًا خاصًا على الليلة وعلى الحدث الذي يجري فيها.

- **بِإِذْنِ رَبِّهِم:** أي نزولهم ليس من تلقاء أنفســـهم، بل بأمر الله الكوني وتدبيره ومشيئته.
- **مِّن كُلِّ أَمْرٍ:** يحملون معهم أوامر الوحي بشتى جوانبه.
- **سَلَٰمٌ هِيَ:** أسلوب قصر صفة الليلة وما فيها على شيء واحد وهو الســـلام، وهذا معنى تقديم الخبر (ســـلام) وتأخير المبتدأ (هي)، أي أنها ســـلام خالص لا يشـــوبه شر. السلام هنا يعني الأمن والطمأنينة والبركة والتحيّة، وهذا كلّ ما فيها وليس فيها غيره، ولأننا نعلم أنّها ليست مقصـــودة في ذاتها بل بســـبب الوحي الذي نزل فيها، فالأمن والطمأنينة والبركة والتحيّة هي صـــفات الوحي الذي فيها.

مقالة سورة القدر

أُعلِنُ لكم بيقينٍ وجلال، نحنُ أنزلنا هذا القرآن، في ليلةٍ كانت هي وعاء بداية نزوله، ليلة تجلّت فيها قدرتنا وتقديرنا وشرف هذا الكلام. وما عســـاك أن تُدرِكَ حقيقة هذا الحدث، حدث بدء نزول الوحي، لولا أن أُعلِمَكَ بـه؟ إن هـذا الوحي الـذي بـدأ

نزوله في تلك الليلة لهو في جوهره خيرٌ وأنفع وأبقى أثرًا من ألف شـهرٍ يقضـيها البشـر في تدبيرهم وتفكيرهم وتخطيطهم القاصـر بعيدًا عن نور الهداية؛ فلحظةٌ من هذا التنزيل قد تحلّ ما لا تحلّه دهورٌ من الجهد الإنساني المحض. وفي سياق هذا التنزيل، يتتابع نزول الملائكة، رسـلنا وقوانا المنفذة، ومعهم تلك القوة الروحية العظيمة المتمثلة في الروح الأمين جبريل، نزولًا بإذن ربهم وأمره، حاملين أوامر هذا الوحي بشـتى جوانبه وتفاصـيله. إن هذا الوحي، هذه الرسـالة التي تتنزل، هي سـلامٌ خالصٌ لا يشـوبه شـر، هي أمنٌ وطمأنينة وبركة وتحية، لا شـيء فيها إلا ذلك، وتستمرّ هذه الحالة من السلام والبركة ملازمةً للوحي حتى ينجلي الأمر تمامًا ويطلع فجر الحقيقة كاملًا.

المعنى الشمولي (القدر)

في سـياق الدعوة الجهرية، تأتي سـورة القدر لترسـيخ حقيقة جوهرية حول طبيعة القرآن وقيمته المطلقة. تؤكد السـورة بأسلوب جازم ("إنّا أنزلناه") المصدر الإلهي لهذا الوحي الذي يُتلى على الملأ. وتسـتخدم "ليلة القدر" كإطار زمني ومكاني رمزي لبدء هذا الحدث العظيم، لكن الإضاءات اللغوية تقدّمت تطلعنا على حقيقة الخيرية الفائقة التي تجعل ليلة تفضـل ألف شـهر، إذ إنّ السلام هو في حقيقته صفة للوحي ذاته الذي بدأ نزوله فيها.

ففهم "القدر" على أنه الشرف والمنزلة والتقدير الإلهي ينسب هذه الصفات للقرآن. وتفسير "خير من ألف شهر" بأنه تفوق لحظة الوحي الإلهي على دهور من التفكير والتدبير البشري يضع القرآن في مكانة لا تضاهيها أي حكمة أرضية، وهو أمر حاسم في سياق دعوة الناس لاتباعه وترك ما سواه. كما أن فهم نزول الملائكة والروح "من كل أمر" على أنهم يحملون أوامر الوحي وجوانبه يؤكد شمولية الرسالة الإلهية.

وأخيرًا، فإن قصر صفة الليلة على "السلام" ("سلام هي")، وتوجيه هذا الوصف إلى الوحي نفسه باعتباره هو المقصود، يحدد ماهية الرسالة القرآنية بأنها في جوهرها رسالة سلام وأمان وبركة وطمأنينة للمتبعين، وأن طبيعة السلام هذه في الوحي مستمرة حتى اكتمال بيان الحق ("مطلع الفجر"). بهذا الفهم، لا تعود السورة مجرد حديث عن فضل ليلة معينة بقدر ما هي بيان لطبيعة الوحي القرآني نفسه وجلال قدره وقيمته المطلقة، وهو البيان الأنسب لمرحلة الجهر بالدعوة وتحدي المنظومات القائمة.

ثانيًا: سورة الشمس

إضاءات لغوية

- **قسم متعدد (وَٱلشَّمۡسِ... وَنَفۡسٖ):** القسم بآيات كونية عظيمة تظهر حالاتها الثلاث بصورة مقابلة، وإضافة أمثل حالات الشيء المقسم به إليه ثم إتباعه بنقيضه (الشمس وضحاها والقمر في أوّل الليل، النهار في جلائه والليل حين يغشى، السماء وما بناها، الأرض وما طحاها) ثم بالآية الإنسانية الكبرى (النفس وتسويتها بشرًا قادرًا)، هذا الأسلوب البلاغي البديع يستهدف لفت الانتباه بقوة إلى عظمة الخالق لهذه الآيات كلها، وتهيئة النفس لتلقي جواب القسم الذي يمثل حقيقة جوهرية. التقابل بين الظواهر الكونية وتتبّع تغيّرها يبرز دقة النظام والتوازن في الخلق، من جهة ومن جهة أخرى هو تذكير بنمط (الآية، صعودها، مصيرها).
- **وَضُحَىٰهَا:** الضحى هو وقت انبساط ضوء الشمس بعد شروقها وارتفاعها، وهو وقت الوضوح والنشاط.
- **إِذَا تَلَىٰهَا:** (تلا) من الجذر (ت ل و) بمعنى تبع. القمر يتبع الشمس ظاهريًا في النور أو المسار.

- **إِذَا جَلَّىٰهَا:** (جلى) من الجذر (ج ل و) بمعنى كشف وأظهر. النهار يكشف الأرض أو الدنيا التي يغطيها الليل.
- **إِذَا يَغْشَىٰهَا:** (غشي) من الجذر (غ ش ي) بمعنى غطى وستر. الليل يغطي بظلامه الأرض.
- **وَمَا بَنَىٰهَا / طَحَىٰهَا / سَوَّىٰهَا:** (ما) هنا الأرجح أنها "ما" الموصولة بمعنى "الذي"، فالقسم بالسماء وبالذي بناها، والأرض وبالذي بسطها ومدّها (طحاها من الجذر: ط ح و)، والنفس وبالذي أتقن خلقها وأكملها وهيأها (سواها من الجذر: س و ي). هذا التفسير يركز على الفاعل الخالق (الله) ويبرز قدرته وعلمه.
- **وَنَفْسٍ:** التنكير هنا للعموم (كل نفس إنسانية)، أو للتفخيم لبيان أنها آية عظيمة في خلقها. الانتقال من الآفاق إلى الأنفس يربط بين قوانين الكون وقوانين الطبيعة البشرية.
- **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا:** وهو تمام النمط ومناط التذكير الكامن في القسم. (ألهم) إلقاء المعنى في القلب وتعريفه بالشيء كأنه فطريّ. الفاء للترتيب على التسوية. أي أن الله تعالى بعد أن خلق النفس وسواها، أودع فيها القدرة الفطرية على إدراك طريق الشر والانحراف (الفجور من الجذر ف ج ر: شقّ الطاعة والخروج عنها) وطريق الخير والوقاية (التقوى من

الجذر و ق ي: الاتقاء والحذر). هذا الإلهام لا يعني الجبر، بل هو تزويد النفس بالقدرة على التمييز وبالميلين المتضادين، لتكون مسؤولة عن اختيارها.

- **قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا:** هذا هو جواب القسم. (أفلح) من (ف ل ح): فاز ونجا. (خاب) من (خ ي ب): خسر وفشل. (زكى) من (ز ك و): طهر ونمّى. (دسى) أصلها دسس من (د س س): أخفى وقمع ودفن. فالنجاة والفلاح ثمرة مباشرة لتطهير النفس وتنميتها بالخير، والخيبة والخسران نتيجة حتمية لقمع خير النفس ودفنها في الشرور. إنها سنة إلهية في النفس الإنسانية.
- **كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ:** الاستشهاد بثمود. (كذبت) أي كذبوا رسولهم صالحًا. (بطغواها) الباء سببية، أي كان سبب تكذيبهم هو طغيانهم وتجاوزهم الحد في الكبرياء والعصيان. (الطغوى) مصدر من (ط غ و) وتعني أشدّ الطغيان. الربط هنا مباشر بين الحالة الأخلاقية (الطغيان) والموقف من الرسالة (التكذيب).
- **ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا:** (انبعث) أي نهض مسرعًا باندفاع للشر. (أشقاها) أي أكثرهم شقاءً وتعاسةً وعنادًا.
- **نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا:** منصوب على التحذير: احذروا المساس بآية الله (الناقة) وحقّها في الشرب.

- **فَعَقَرُوهَا:** (العقر) هو قتل انتقاميّ للإبل عند العرب، ومنه قالت العرب: تعاقر الرجلان، فأخذ واحدهم يقتل إبل الآخر بقطع عراقيبها، وهو قتل مؤلم، وهو التجسيد العملي للتكذيب والتمرد.
- **فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم:** (دمدم) من (د م د م)، صوت الغضب عند العرب إذ يخرج نبرًا غير مفهوم، وهو هنا كناية عن الغضب.
- **فَسَوَّىٰهَا:** أي سوّاهم بالأرض فأصبحوا أثرًا بعد عين.
- **وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا:** أي أن الله تعالى حين أهلكهم، فعل ذلك بكمال قدرته وعدله، غير خائف من تبعة فعلته أو انتقام أحد. وهذا يبرز عزة الله المطلقة في مقابل عجز المخلوقين وتبعات أفعالهم، أو إنّ الإنسان الذي اختار الفجور ما زال رغم كلّ هذا لا يخاف عاقبة تكذيبه لله حتّى تأتيه هذه العاقبة.

مقالة السورة (الشمس)

أُقسِمُ بالشمس وهي في أوج ضحاها وإشراقها، ثم بالقمر إذا جاء بعدها تابعًا لها أو مستمدًا من نورها، وأُقسِمُ بالنهار في تمام جلائه وكشفه للأرض، ثم بالليل إذا سترها وغطاها بظلامه. وأُقسِمُ بالسماء وبمن أبدع بناءها المتقن، وبالأرض وبمن بسطها ومهّدها، وأُقسِمُ بالنفس الإنسانية وبمن خلقها

تسـويةً عجيبة متقنة، كاملة الاسـتعداد. فكما أن لهذه الآيات الكونية أحوالًا من بزوغ وأفول، ونور وظلمة، فقد أودعتُ في هذه النفس التي سـويتها القدرةَ الفطرية والاسـتعداد لطرفي النقيض: عرّفتها طريق الانحراف والتمرد (فجورها)، كما عرّفتها طريق الصلاح والوقاية (وتقواها).

أُقسِمُ بكل ذلك على حقيقةٍ هي قانونُ وجودكم ومصيركم: قد فاز ونجا كل الفوز من اختار طريق الخير فطهّر نفسه ونمّاها، وقد خسر كل الخسران من اختار طريق الشر فدفنَ إمكانات الخير في نفسه وأخملها وقمعها.

ولتعلموا عاقبة اختيار طريق الشر والطغيان، انظروا في مصير ثمود: لقد كذبوا رسولهم صالحًا، ولم يكن تكذيبهم عن جهل، بل كان بسبب طغيانهم المفرط وتجاوزهم الحد في الاستكبار والعصيان. وذلك حين انطلق أشقاهم مندفعًا نحو الجريمة، متحديًا تحذير رسول الله لهم: أوصيكم بناقة الله وهي آيته إليهم، واحرصوا على سقايتها! لكنهم كذّبوه، وأقدموا على قتلها بتلك الطريقة الوحشية البشعة (العقر) التي عرفها العرب في تمام الغيظ والانتقام. فكانت النتيجة أن غضبت عليهم بسبب ذنبهم هذا، فسوّيتُهم بالأرض فلم أُبقِ منهم أحدًا. فعلتُ ذلك بقوتي وعدلي، لا أخشى تبعةً لما قضيت، ولكنّ الإنسان الذي اختار طريق الفجور، تراه لا يزال يستهين ويُعرض، ولا يخاف عاقبةَ تكذيبه وتمرده حتى تدهمَه تلك العاقبة!

المعنى الشمولي (الشمس)

تأتي سورة الشمس في سياق الدعوة الجهرية لترسيخ مبدأ المسؤولية الفردية، فهو يخاطب الناس أفرادًا بمعانٍ تتعلّق بكلّ فرد منهم، أمام الخيار الأخلاقي الذي يطرحه الوحي. تبدأ السورة بسلسلة من الأقسام البلاغية البديعة التي لا تقتصر على إبراز عظمة الخالق من خلال آياته الكونية (الشمس، القمر، النهار، الليل، السماء، الأرض)، بل ترسم أيضًا نمطًا من التقابل والتتابع (الضحى ثم أفول الشمس ليتلوها القمر، جلاء النهار ثم غشيان الليل له) يمهد لفهم طبيعة النفس الإنسانية.

فالانتقال إلى القسم بالنفس وتسويتها الإلهية المتقنة، ثم بيان إلهامها لطرفي النقيض ("فجورها وتقواها")، يربط بين النظام الكوني المتقن وبين النظام النفسي المهيأ للاختيار. فكما أن للكون قوانينه وتقلباته، فإن للنفس استعداداتها المتضادة وقانونها الأخلاقي. وهذا الإلهام المزدوج يؤكد أهلية الإنسان للاختيار وبالتالي مسؤوليته الكاملة عنه.

جواب القسم يأتي واضحًا وحاسمًا ليقرر القانون الأساسي للنجاة والخسران: الفلاح نتيجة حتمية لتزكية النفس وتنميتها، والخيبة نتيجة حتمية لقمع خيرها. إنه قانون المسؤولية الفرديّة الذي يضعه القرآن أمام كل إنسان في مكّة وكلّ من يسمعه إذ يقرأ فيها.

ولتدعيم هذا القانون وتقديم الإنذار، تستعرض السورة قصة ثمود كنموذج صارخ لعاقبة اختيار طريق قمع خير النفس الكامن فيها. وتربط السورة بوضوح بين تكذيبهم للرسول وبين حالتهم النفسية والأخلاقية (الطغوى)، ثم تصف فعلتهم الشنيعة (العقر) بما تحمله من دلالات الانتقام في الثقافة العربية آنذاك، لتنتهي ببيان الغضب الإلهيّ والعقاب الشامل. قصة ثمود هنا ليست مجرد عبرة تاريخية، بل إنذار مباشر لجمهور الدعوة الجهرية في مكة من مغبة الطغيان والتكذيب، وإن كان العقر هنا فعل فرد، فثمّة خوف على الجماعة إذ تترك أفرادًا أشقياء يصدّون عن سبيل الله. إنّ في ذلك تحذير لأهل مكّة من مغبّة فعل سادتها المكذّبين الذين يشوّشون على الدعوة.

الختام "ولا يخاف عقباها" يحمل، بالإضافة إلى بيان عزة الله وكمال قدرته في تنفيذ قضائه دون خشية من تبعات، بعدًا تحذيريًا إضافيًا قويًا، وهو الإشارة إلى استمرار الإنسان المعاند في غيه وعدم خوفه من العواقب حتى تحيق به، مما يزيد من مسؤولية اختيار طريق التزكية قبل فوات الأوان.

إجمالًا، تقدم سورة الشمس رؤية متكاملة تربط قوانين الكون بقوانين النفس وقوانين التاريخ والجزاء، لتؤكد على المسؤولية الفردية القائمة على الاختيار بين تزكية النفس أو قمع الخير الكامن فيها، ولتحذر من عواقب الطغيان ولو كان فرديًّا إذا

قبلته الجماعة ولم تتصـــدّ له، بإنذار تاريخي واضـــح، مقدمةً بذلك الأســـاس الأخلاقي والنفســـي لتلقي الرســـالة الإلهية في مرحلة المواجهة العلنية، وكأنّها تحرّض فقراء مكّة وضـعافها على سادتها وكبرائها.

مقالات القرآن العظيم 23 | البروج

بعد أن وضعت سورة الشمس ميزان النفس الفردية ومسؤوليتها أمام خالقها، تأتي سورة "البروج"، وهي السادسة والعشرون في ترتيب النزول التقريبي، لتنتقل بالخطاب إلى دائرة أوسع، دائرة الصراع بين جماعة الإيمان وقوى الطغيان في المجتمع. في مرحلة الجهر بالدعوة، حيث يواجه المؤمنون التحدي والاضطهاد المحتمل، تقدم هذه السورة رسالة مزدوجة: تثبيتًا وعزاءً للمؤمنين، وإنذارًا ووعيدًا شديدًا للمكذبين المعتدين. إنها سورة ترسم مشهد العزة الإلهية المطلقة، وصمود الإيمان الراسخ، وحتمية الجزاء الإلهي العادل، مستحضرةً آيات الكون والتاريخ كشواهد ناطقة.

إضاءات لغوية

- **وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ:** القسم بالسماء المتصفة بالبروج. الجذر (ب ر ج) يدل على الظهور والعلو والحصانة. والبروج قد تكون المنازل العظيمة للكواكب والنجوم التي تبدو كقصور أو أبراج عالية، أو هي الأبواب العظيمة للسماء أو التجمعات النجمية المعروفة. القسم بها يستحضر عظمة الكون المنظور ودقته وإحكامه، ويرمز للحفظ الإلهي والعلو المطلق، والرقابة الشاملة.

- **وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ:** هو يوم القيامة، يوم الفصـــل والجزاء الذي وعد الله به عباده. القســـم به يؤكد حتميته وكونه محور الأحداث وغايتها.

- **وَشَـاهِدٖ وَمَشۡـهُودٖ:** التنكير هنا للتعظيم والشـمول. وفي ضـــوء الســـياق والآيات اللاحقة، وبما أن الله تعالى هو الشـهيد المطلق (كما في الآية 9)، فالأظهر أن "الشـاهد" هنا هو الله تعالى نفسه. و"المشهود" هو كل ما يقع تحت شـــهادته من أحداث وأفعال، وعلى رأســـها هنا ما جرى لأصـــحاب الأخدود من ظلم فادح، وما يجري في زمن النزول من فتنة للمؤمنين وتكذيب من المشركين. فالقسم هنا إذن بالســـماء وبروجها، وباليوم الموعود، وبشـــهادة الله الشـــاملة على الأحداث كلها، ماضـــيها وحاضـــرها. وهذا التفسير يربط القسم مباشرةً بجوهر السورة: الرقابة الإلهية والعدل المطلق.

- **قُتِلَ أَصۡـحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ:** (قُتل) صـــيغة الماضـــي المبني للمجهول، وهي هنا ليست إخبار، بل تحمل معنى الدعاء عليهم بـاللعنـة والطرد من رحمـة الله، أو الإخبـار عن ســـخط الله الشـــديد عليهم وهلاكهم المعنوي والفعلي. (الأخدود) من الجذر (خ د د)، وهو الشـــق العظيم في الأرض، وأصحابه هم الذين حفروه، ليعذّبوا العباد فيه.

- **ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ:** (النار) جاءت بدلًا من (الأخدود) لبيان أن الأخدود لم يكن إلا نارًا موقدة بشدة، ووصفها بـ"ذات الوقود" يؤكد ضخامتها وشدة اشتعالها.
- **إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ:** (إذ) ظرف يستحضر المشهد الدنيوي، فهم قعود حول النار يشرفون على التعذيب ويتفرجون، وهم بأنفسهم شهود على جريمتهم، وهذا يزيد من شناعة فعلتهم وبرود قلوبهم.
- **وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ...:** أسلوب قصر نافٍ وحاسم بـ(ما) و(إلا). يؤكد أن الجريمة الوحيدة للمؤمنين في نظر هؤلاء الطغاة كانت إيمانهم بالله العزيز (الذي لا يُغلب) الحميد (المستحق للحمد). (نقموا) من الجذر (ن ق م)، أي كرهوا وعابوا وأنكروا أشد الإنكار.
- **ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ:** هذه الصفات الإلهية تأتي في سياق توبيخ الطغاة وتعظيم شأن المؤمنين وإلههم؛ فكيف يُعادى من يؤمن بمالك الملك المطلق، الشاهد على كل شيء؟ تقديم "له" يفيد قصر الملكية على الله وحده.
- **فَتَنُواْ:** من الجذر (ف ت ن)، وفيه معنى الاختبار والتمييز والمصيبة. استُعير هنا لابتلاء المؤمنين وتعذيبهم وصدهم عن دينهم.

- **وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ:** تخصـــيص "عذاب الحريق" بعد "عذاب جهنم" فيه تأكيد ومناســـبة؛ فالجزاء من جنس العمل، فكما أحرقوا أولياء الله، سيكون جزاؤهم الحريق، وهو أشد أنواع العذاب.
- **إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ:** (البطش) هو الأخذ القوي العنيف. التأكيد بـــــ(إنّ) واللام (لشديد) يقرر حقيقة لا مفر منها: أن عقاب الله إذا نزل بالظالمين كان شديدًا بالغًا.
- **يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ:** هو الذي خلق الخلق ابتداءً، وهو وحده القادر على إعادتهم بعد الموت للجزاء. فيه رد على منكري البعث وتأكيد على كمال القدرة.
- **ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ:** صيغتا مبالغة تدلان على سعة مغفرة الله لمن تاب، وشـــدة محبته ووده لأوليائه المؤمنين. ذكر هاتين الصـفتين بعد ذكر شـدة البطش يفتح باب الرجاء ويظهر كمال الله تعالى الجامع بين العدل والرحمة، وبين الجلال والجمال.
- **ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ:** (المجيد) تحتمل الوصـــفية لله (صاحب العرش المجيد) أو للعرش نفسه. ونظرًا لسياق ذكر صـــفات الله تعالى، فالأظهر أنها صـــفة لله، فهو المجيد ذو العرش.

- **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ:** صـــيغة مبالغة "فعّال" تدل على تمام القدرة ونفاذ الإرادة، وأنه لا يُســـأل عما يفعل لكمال حكمته وقدرته.
- **هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ:** اســـتفهام تقريري للتذكير والاعتبار بمصائر الطغاة السابقين.
- **فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ:** بدل من (الجنود)، وهما مثالان للقوة والتكذيب والهلاك. (ثمودَ) ممنوع من الصرف.
- **فِي تَكۡذِيبٍ:** اســـتخدام "في" الظرفية يبين انغماس الكفار المعاصرين في التكذيب وإحاطته بهم.
- **وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ:** تعبير بليغ عن إحاطة الله التامة بهم علمًا وقدرةً وســلطانًا، فهم في قبضـــته ولا مفر لهم منه.
- **قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ:** وصف القرآن بالمجد والشرف والعظمة، وهو يتناسب مع وصف الله بـــ"المجيد"، مما يربط بين صفات الكلام وصفات المتكلم سبحانه.
- **فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ:** بيـان لكون القرآن محفوظًـا وإن لم ينزل في ألواح كما نزل على موسـى، فلوح القرآن بذاته محفوظ عن يد البشر وتلاعبهم بقدرة الله.

مقالة السورة (البروج)

أُقسِمُ بالسماء وما فيها من بروج شاهقة ونظام محكم، مذكّرًا إيّاكم بما تمثّله السماء وبروجها من رقابة عليكم، وأُقسِمُ بذلك اليوم الموعود الذي لا ريب فيه، وأُقسِمُ بنفسي شاهدًا على كل شيء، وبكل ما جرى ويجري من أحداث مشهودة، وعلى رأسها ما فعله أصحاب الأخدود، الذي تذكّر به أفعال الكفّار بالمسلمين. لقد لُعِنَ أولئك الطغاة الذين أوقدوا نار الأخدود العظيمة، وجلسوا حولها يشاهدون بأعين باردة أجساد المؤمنين تحترق! وما الذي دفعهم لتلك الفعلة الشنيعة؟ ما كرهوا منهم شيئًا إلا سببًا واحدًا: أنهم آمنوا بي أنا الله، العزيز الذي لا يُغلب، الحميد المستحق لكل حمد، مالك السماوات والأرض، الشاهد على كل شيء.

فليعلم أولئك الذين يعذبون المؤمنين والمؤمنات ليفتنوهم عن دينهم، ثم لا يتوبون، أن لهم عذاب جهنم، ولهم فيها عذاب الحريق، جزاءً مماثلًا لجريمتهم. وفي المقابل، فإن الذين آمنوا بي وعملوا الأعمال الصالحة، فلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ذلك هو الفوز الأعظم.

ولتتذكروا دائمًا: إن أخذي وبطشي بالظالمين لشديد حقًا. أنا هو الذي بدأتُ الخلق وأنا الذي أعيده بعد فنائه. ومع شدة بطشي، فإني أنا الغفور لمن تاب، الودود لمن آمن وأطاع. أنا صاحب العرش العظيم، المجيد في ذاتي وصفاتي. لا يُرَدُّ لي

قضـــاء، ولا يُعجِزُني شـــيء، ولا أســـأل عمّا أفعل، وإرادتي نافذة.

ألم يبلغكم ويبلغهم خبر الطغـاة الســـابقين وجنودهم؟ خبر فرعون وجبروته، وخبر ثمود وقوتهم؟ كيف كانت نهايتهم لما كذبوا وعاندوا؟ ولكن هؤلاء الكفار المعاصـــرين لا يعتبرون، بل هم ماضـــون في تكذيبهم غارقون فيه. فليعلموا أني محيط بهم من كل جانب، لن يفلتوا من حســـابي وعقابي. وليعلموا أيضًا أن هذا الذي يكذبون به ليس إلا قرآنًا عظيمًا مجيدًا، وإن لم ينزل في لوح كألواح موسى فهو في لوح محفوظ عن أيدي الناس بأمر الله.

المعنى الشمولي (البروج)

تأتي ســـورة البروج لتمثل نقلة هامة في خطاب الوحي المكي بعد الجهر بالدعوة، فهي تقدم رســـالة قوية متعددة الأبعاد: تثبيت للمؤمنين في مواجهة الاضـــطهاد، وإنذار للطغاة المكذبين، وتأكيد على حقائق الإيمان الكبرى المتعلقة بقدرة الله وعدله وعلمه وحفظه لوحيه.

تبدأ السورة بالقسم بمشاهد كونية ويوم الحساب وبالشهادة الإلهية الشاملة، مما يضع الأحداث الأرضية ضمن منظور كوني وإلهي واســـع، ويؤكد أن ما يجري على الأرض ليس غائبًا عن علم الله ورقابته. وتفسير "وشـــاهد ومشـــهود" بأن الشـــاهد هو الله والمشـــهود هو الأحداث (الماضـــية كالأخدود

والحاضرة كفتنة قريش) يربط قسم السورة بجوهر رسالتها المتعلّق بتجبّر سادة مكّة بشكل مباشر قوي.

قصة أصحاب الأخدود تحتل موقعًا مركزيًا، فهي ليست مجرد سرد تاريخي، بل نموذج يُحتذى في الثبات على الإيمان حتى الموت، ونموذج يُحذّر منه في الطغيان والقسوة وعاقبتهما. وهي تسلية للمؤمنين المعاصرين لنزول السورة بأنهم ليسوا وحدهم في طريق الابتلاء، وتهديد للطغاة بأن سنة الله في الظالمين ماضية.

تؤكد السورة على قانون الجزاء الإلهي الحتمي والمتقابل: عذاب الحريق لمن فتنوا المؤمنين ولم يتوبوا، والفوز الكبير والجنات لمن آمنوا وعملوا الصالحات. هذا القانون مدعوم ببيان صفات الله تعالى التي تجمع بين شدة البطش والقدرة المطلقة (يبدئ ويعيد، فعال لما يريد) وبين الرحمة والمغفرة والمودة (الغفور الودود)، وبين العظمة والمجد (ذو العرش المجيد).

كما تستخدم السورة التاريخ مرة أخرى (فرعون وثمود) لتعزيز الإنذار والتأكيد على أن القوة المادية لا تحمي من بطش الله عند التكذيب. وتصف حال الكفار المعاصرين بأنهم منغمسون في التكذيب، لكنهم محاطون بقدرة الله وعلمه.

وأخيرًا، تختم السورة بتعظيم شأن القرآن والتأكيد على حفظه ("في لوح محفوظ")، وهذا يمثل ذروة التثبيت للمؤمنين؛

فمهما بلغت قوة الأعداء وشـــدة التكذيب، فإن الحق الذي يتبعونـه محفوظ ومجيد وســـيبقى. إنها ســـورة تبث القوة والعزيمــة في نفوس المؤمنين، وتلقي الرهبــة في قلوب الظــالمين، وتؤكـد على الثوابـت الكبرى للإيمــان والجزاء، ونسـتشـفّ من ذلك أنّها نزلت إذ بدأ تعذيب من اتّبع الرسـول على أيدي سادة قريش.

مقالات القرآن العظيم 24 | التين وقريش

نتابع مسيرتنا مع سور القرآن حسب ترتيب نزولها التقريبي، ونصل إلى سورتين متتاليتين هما "التين" و"قريش". تأتي هاتان السورتان في مرحلة الجهر بالقرآن ومخاطبة "عامة قريش" في أسواقهم ومجامعهم، بعد أن كانت الدعوة موجّهة للنخبة أو للمقرّبين بشكل أكبر كما رأينا سابقًا. هذا السياق الجديد يقتضي خطابًا يلامس اهتماماتهم، ويستند إلى ما يعرفونه ويعظمونه، ويضعهم أمام مسؤولياتهم الكونية والخاصة. فسورة التين ترسم الإطار الكوني لمكانة الإنسان وشروط نجاته، مستشهدة برموز جغرافية وتاريخية ذات معنى عميق عندهم، فهم يقرّون أنّ الله ربّهم هو ربّ عيسى وموسى، بينما تأتي سورة قريش لتخاطب القبيلة مباشرة باسمها، وتذكرها بنعم خاصة جدًا بها، وتربط هذه النعم بوجوب إفراد الله بالعبادة. كلتا السورتين تدعوان قريشًا للتفكر في حالها ومآلها ومسؤوليتها أمام رب هذا البيت ورب العالمين، ولكن كلٌّ من زاويتها الخاصة.

أولًا: سورة التين (28)

إضاءات لغوية

- **وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ:** قسم بهذين الثمرين أو شجريهما أو الأرض التي تنبتهما، والأخير هو الأظهر ليتناسب مع القسم الذي يليه، فهو تذكير بمنبتهما ومكان ظهورهما.

يُرجّح أن المقصود هو الإشارة إلى الأرض المقدسة (فلسطين من الشام) مهد كثير من النبوات (كنبوة عيسى عليه السلام).

- **وَطُورِ سِينِينَ:** الطور هو الجبل، وسينين هو جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة. القسم به يستحضر النبوة الموسوية، وهي نبوة ذات مكانة خاصة ومعروفة لدى العرب.
- **وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ:** الإشارة بـ"هذا" للقريب تؤكد أن المقصود هو مكة المكرمة، بلد النبي والمخاطبين الأوائل. وصفها بـ"الأمين" من الجذر (أ م ن) يؤكد على حرمتها ومكانتها الآمنة التي كانت قريش تفخر بها وتستفيد منها. القسم بهذه الأماكن الثلاثة (الشام/فلسطين، سيناء، مكة) يجمع مهابط الوحي الرئيسة ومراكز النبوات الكبرى التي عرفها العرب.
- **لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ:** هذا هو جواب القسم، مؤكدًا بـ(اللام) و(قد). (تقويم) من الجذر (ق و م) يدل على الاعتدال والتسوية وإعطاء الشيء هيئته الكاملة المناسبة. فالله خلق الإنسان في أعدل صورة وأكمل هيئة، جسمًا وعقلًا وروحًا، ومنحه أفضل الإمكانات والاستعدادات الفطريّة لقبول الحقّ والسير في طريق الكمال.

- **ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ:** (ثم) للتراخي والترتيب. (رددناه) أي أرجعناه وصيّرناه إلى أسفل سافلين، أي إلى أحط الدرجات وأدناها. هذا الرد ليس قدرًا محتومًا، بل هو نتيجة لاختيار الإنسان نفسه الانحراف عن فطرته السوية وإعراضه عن الهدى. وقد يشير إلى الانحطاط المعنوي والأخلاقي، أو إلى الضعف في أرذل العمر، أو إلى المصير الأخروي في النار لمن اختار طريق الكفر والعصيان. السياق يرجح الانحطاط المعنوي الذي يؤدي إلى المصير الأخروي الأسفل.
- **إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ:** الاستثناء من الرد إلى أسفل سافلين. (ءامنوا) من الجذر (ء م ن)، وهو هنا الدخول في عهد الأمان والثقة مع الله ومع المؤمنين، والتزام بمقتضيات هذا العهد من توحيد وطاعة وتأمين للخائف، وليس مجرد الاعتقاد القلبي. (وعملوا الصالحات) أي الأعمال الموافقة للحق والعدل والخير، وهي الترجمة العملية لهذا العهد (الإيمان). فالنجاة مشروطة بالالتزام بالعهد (الإيمان) وبالعمل الصالح معًا.
- **فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ:** (أجر) أي جزاء وثواب. (غير ممنون) أي مستحقّ وغير منقوص، فهو دائم مستمر.

- **فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ:** الخطاب هنا للإنسان المكذب، والفاء للسببية. أي: فبعد كل هذه الأدلة الواضحة - القسم بالأماكن المقدسة، وخلق الإنسان في أحسن صورة، وبيان طريق النجاة وعاقبة الهلاك - ما الذي يجعلك أيها الإنسان تكذب بعدُ بالدين؟ (الدين) هنا هو النظام الذي أتت به هذه الرسالة. الاستفهام إنكاري توبيخي.
- **أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ:** استفهام تقريري يختم السورة. (أحكم) صيغة تفضيل من الحكمة والحُكم، أي هو أعدل الحاكمين وأعلمهم وأحكمهم في قضائه وتقديره وجزائه. والباء في (بأحكم) زائدة للتأكيد. هذا الختام يؤكد حتمية الجزاء (الدين) وعدالة الله المطلقة فيه.

مقالة السورة (التين)

أُقسِمُ بتلك الأراضي المباركة التي تعرفونها وتحمل إرث النبوات، أرض التين والزيتون في الشام وفلسطين، وأُقسِمُ بجبل الطور في سيناء حيث كلّمتُ موسى، وأُقسِمُ بهذا البلد الحرام الآمن الذي أنتم فيه، مكة، مهبط هذا الوحي. أُقسِمُ بكل ذلك لقد أبدعتُ خلق الإنسان في أعدل هيئة وأكمل صورة ومنحتُه أفضل الاستعدادات. ثم إن هذا الإنسان نفسه، باختياره وإعراضه، قد يُرَدّ ويُنكّس إلى أحطّ الدركات وأسفل المنازل. إلا فئة واحدة تنجو من هذا المصير المحتمل: أولئك الذين التزموا بعهد الأمان معي ومع عبادي (آمنوا)، وأتبعوا هذا

العهد بالأعمال الصالحة الطيبة. فهؤلاء لهم ثواب دائمٌ لا ينقطع، وعطاءٌ كريم لا يُتبَع بمنّة. فبعد هذا البيان كله عن تكريمي للإنسان وبيان سبل النجاة والهلاك، أيّ شيءٍ يجعلك أيها الإنسان تُكذّب بهذا النظام الذي تأتي به هذه الرسالة (الدين)؟ ألا تُقرّ وتعلم بأني أنا الله أعدلُ الحاكمين قضاءً وأحكمهم صنعًا وتقديرًا؟

المعنى الشمولي (التين)

تقدم سورة التين رؤية كونية وإنسانية شاملة، تضع الإنسان أمام حقيقة وجوده ومسؤوليته ومصيره. تبدأ بالقسم بأماكن ذات رمزية دينية وتاريخية عظيمة (مهابط وحي ومنبت خيرات)، بما فيها مكة نفسها ("هذا البلد الأمين")، وهذا القسم يربط الرسالة المحمدية بالإرث النبوي السابق ويخاطب أهل مكة بما يعظمونه ويعرفونه، ويقرن بين أرض الديانات التوحيديّة وبين أرضهم. جواب القسم يقرر حقيقة مزدوجة: لقد خلق الله الإنسان في "أحسن تقويم"، أي بأعلى إمكانية للكمال والرقي، ولكنه في ذات الوقت معرض للانتكاس والرد إلى "أسفل سافلين" إن هو اختار طريق الانحراف.

تحدد السورة بوضوح شرط النجاة من هذا السقوط: إنه الالتزام بعهد الأمان والثقة (الإيمان) المقرون بالعمل الصالح. فالإيمان هو الشقّ المعنويّ من العهد، والعمل الصالح لا قيمة

له دون أساس من هذا العهد. والجزاء على ذلك هو "أجر غير ممنون"، أي ثواب دائم وكريم.

بعد تقرير هذه الحقائق، تأتي السورة لتتحدى المنكرين للجزاء والحساب ("الدين") بسؤال توبيخي: ما الذي يدعو للتكذيب بعد كل هذه الأدلة على الخلق والتكريم والابتلاء وبيان طريق النجاة؟ ثم تختم بالتأكيد على عدل الله المطلق وحكمته البالغة ("أليس الله بأحكم الحاكمين؟")، أي ألا تقبلون حكمه وهو أحكم الحاكمين!

إن السورة في مجملها تضع الإنسان، وخاصة أهل مكة المخاطبين مباشرة بالإشارة إلى بلدهم الأمين، أمام مسؤوليتهم الكبرى: إما الارتقاء إلى مستوى "أحسن تقويم" بالإيمان (بمعنى عهد الأمان) والعمل الصالح، وإما السقوط إلى "أسفل سافلين" بالتكذيب والإعراض.

ثانيًا: سورة قريش (29)

إضاءات لغوية

- **لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ:** اللام هنا الأرجح أنها لام التعليل أو السبب، متعلقة بالأمر الآتي "فليعبدوا"، أي: *بسبب ومن أجل* نعمة إيلاف قريش العظيمة، فليعبدوا رب هذا البيت. (إيلاف) مصدر من (أ ل ف)، وهو عهد بين أهل مكّة جاء بعد أحلاف بوصفه تطوّرًا لها: حلف لعقة الدم،

وحلف المطيّبين، وحلف الفضـــول، واســـمه أتى من التأليف أي الجمع، وهو هنا يشير إلى تلك الحالة الفريدة من الأمن والاســـتقرار والعهود التجاريـة التي ألّفتها قريش ومكنتها من تســـيير رحلاتها بـأمـان وانتظـام. وقريش اســـم مجتمع مكّة وهي لم تكن قبيلة واحدة بل تجمّعًا من قبائل، وسـمّيت بذلك لأنّهم تجمّعوا "تقرّشـوا" من أصول مختلفة.

- **إِيلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ:** هذا بدل أو عطف بيان يوضـــح طبيعة الإيلاف المقصـــود: عهد على تأمين رحلاتهم التجارية السنوية الكبرى نحو اليمن شتاءً ونحو الشام صيفًا، والتي كانت قوام حياتهم الاقتصادية.
- **فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ:** الفاء للســـببية ولترتيب الأمر على النعمة المذكورة. أمرٌ صريح ومباشر لقريش بعبادة رب هذا البيت تحديدًا أي راعيه. (يعبدوا) من (ع ب د) بمعنى الخضـوع والطاعة والتوجه بالعبادة. تخصـيص الربوبية بـــــ"هذا البيت" (الكعبة) يخاطبهم بما يعرفون ويعظمون ويســـتمدون منـه مكـانتهم، ويربط العبـادة مباشـرة بمصـدر عزهم وشـرفهم، وفوق ذلك فالقبائل ما حرصت على وضع أصنامها فيه وزيارته إلّا لأنها تراه بيت الله ربّهم.

- **ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ:** وصـــفٌ لـ"رب هذا البيت"، ويجوز لغة أن يكون البيت ذاته، بأنه هو مصدر النعم المباشرة التي يعرفونها جيدًا. (أطعمهم من جوع): وفر لهم أســـباب الرزق ودفع عنهم الحاجة في بيئة قاحلة، بفضل أمن تجارتهم. (وآمنهم من خوف): أي هو الذي منحهم الأمن والاستقرار ودفع عنهم الخوف من الغارات والنهب والحروب التي كانت تضـــرب محيطهم، وذلك ببركة البيت الحرام ومكانتهم كخدم له. هذا الفعل "آمنهم" يربط مباشرة بين النعمة المحسوسة وبين المعنى الجذري لمفهوم "الإيمان" الذي يدعوهم إليه.

مقالة السورة (قريش)

يـا معشـــر قريش، اذكروا نعمتي العظيمـة عليكم التي لا يشـــاركم فيها غيركم: ذلك العهد والتآلف وذلك الأمن وذلك الاعتياد الذي جعلته لكم (الإيلاف)، والذي به اســـتقامت لكم رحلاتكم التجارية المنتظمة بأمان، رحلة الشـــتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشمال. فبسبب هذه النعمة الخاصة، ومن أجلها، عليكم أن تفردوني بالعبادة والخضـــوع والطاعة، أنا ربّ هذا البيت الذي تعظمونه وتخدمونه وتســـتمدون منه مكانتكم. أنا هو الذي أطعمتكم فدفعت عنكم الجوع والفاقة في هذا الوادي، وأنا هو الذي أمّنتكم فوهبت لكم الأمان من

الخوف الذي يحيط بالناس من حولكم. فهذه النعم المخصوصة تستوجب منكم شكرًا مخصوصًا يتجلى في عبادتي وحدي لا شريك لي.

المعنى الشمولي (قريش)

تتميز سورة قريش بتركيزها المباشر والخاص على قبيلة قريش، مخاطبة إياهم باسمهم ومذكرة إياهم بنعم محسوسة يعرفونها ويمتنون بها في قرارة أنفسهم. تأتي السورة في سياق الدعوة الجهرية لتقدم حجة لا يمكن لقريش إنكارها بسهولة، فهي لا تستند إلى أدلة كونية عامة (كما في سور أخرى) بل إلى واقعهم المعيش وتجربتهم الخاصة.

بنية الحجة في السورة واضحة ومنطقية: تذكير بنعمة "الإيلاف" وما ترتب عليها من تنظيم لرحلات التجارة الآمنة، ثم الأمر المترتب على هذه النعمة وهو عبادة المنعم بها وحده، وتحديده بأنه "راعي هذا البيت" الذي هو مصدر شرفهم ومكانتهم، ثم تعليل هذه الربوبيّة بذكر أثرها المباشر في حياتهم وهو توفير الغذاء والأمن ("الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف").

إن السورة فيها من السياسة شيء كثير، فهي تذكير لعامّة قريش بأنّ نعمة الأمن لم تكن لتتحقّق بحلف الإيلاف وحده، وأن عليهم توجيه هذا الشكر نحو عبادة الله، رب البيت وربهم الذي لا ينكرونه، وهي بذلك تقوض أسس الشرك لديهم،

فالآلهة الأخرى التي يعبدونها وهي أصنام تقوم بوظيفة رموز للقبائل، لم يكن لها أي دور في توفير هذا الإيلاف وهذا الأمن وهذا الرزق الذي قامت عليه حياة قريش. استخدام فعل "آمنهم" في ختام السورة يربط ببراعة بين نعمة الأمن المحسوس وبين "الإيمان" الذي تدعوهم إليه الرسالة الجديدة كعهد أمان مع الله ومع الناس.

إجمالًا، سورة قريش تمثل نموذجًا للدعوة التي تنطلق من واقع المخاطبين وتجاربهم الخاصّة لتقيم الحجة عليهم بضرورة التوحيد وشكر النعمة، وهي حجّة قويّة موجهة بدقة لأهل مكة في مرحلة الدعوة العامة.

نصـــل في مســـيرتنا مع الوحي المكي، وفي مرحلة الدعوة الجهرية، إلى ســـورة "القارعة"، التي يقدر ترتيب نزولها حوالي الثلاثين. تأتي هذه الســورة بعد تناول جوانب من خلق الإنسـان ومسؤوليته الفردية (كما في التين والشمس) ونعم الله الخاصــة على أهل مكة (كما في قريش)، لتقرع أسـماع القوم وقلوبهم بحـدث جلـل هو القيـامـة، مركزة على هولـه وعلى ميزان العدل الدقيق الذي ســـيقام فيه للجزاء. إنها تعتمد على قوة الإيقاع والاسـم الصـادم والصـور الكونية المنقلبة والتقابل الحاسم بين المصيرين، لتقديم إنذار مباشر وبليغ لعامة قريش وغيرهم ممن يسمع هذا القرآن.

إضاءات لغوية

- **ٱلْقَارِعَةُ:** اسم فاعل مؤنث من الجذر (ق ر ع) الذي يدل على الضـــرب المفاجئ الشـــديد. هي القيامة التي تقرع القلوب بهولها وتصدم الأسماع بخبرها. استخدام الصيغة المؤنثة يضفي عليها طابع الداهية أو الواقعة العظيمة.
- **مَا ٱلْقَارِعَةُ؟ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ؟:** تكرار الاســـم والاستفهام بـــ"ما هي؟" ثم "ما أعلمك بها؟" هو أسلوب بلاغي للتهويل والتعظيم والتفخيم لشـــأنها، وللتنبيه إلى أنها حدث يفوق الإدراك البشـــري المعتاد ويتجاوز كلّ

تصـــوّر، ونحن هنا نظنّ أنّنا نعلم ما هي ولكنّنا لا نعلم ذلك على الحقيقة.

- **كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ:** (الفراش) كل ما يفرش أي ينتشـــر في الجوّ، ومنه ســـمّي الفراش المعروف جمع فراشـــة، وقد يكون الفراش ذاته بخفته وطيشه وحركته العشوائية. (مبثوث) من (ب ث ث) أي منتشـر ومتفرق، وليس في حالة سـكونه وهدوئه. التشـبيه يصـور حالة الناس يوم القيامة: كثرة، انتشار، حيرة، اضطراب، ضعف، وخفة أشبه بالذرات المتطايرة.

- **كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ:** (العِهن) هو الصـــوف المصـــبوغ بـالألوان. (منفوش) من (ن ف ش) أي الـذي فُرّقـت أجزاؤه فصـــار خفيفًا يتطاير بســـهولة. تشـــبيه الجبال الراسـخة بالعهن المنفوش يصـور الانهيار الكوني التام، حيث تفقد أثقلُ ما في الأرض صـلابتَه ووزنَه ويصـبح هباءً منثورًا، وتصـوير حالة شـيء ثقيل كالجبال يصـبح كالعهن المتطاير، مقترن بما بعده.

- **ثَقُلَتۡ / خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ:** (الموازين) جمع ميزان، وهي هنا، كما هو شـــأن المواقيت التي هي مواضـــع الوقت، تشير إلى معايير ومقاييس التقييم التي توزن بها الأعمال وتُقدّر قيمتها عند الله. فالموازين هي محل الوزن أو ما يُرجع إليه في التقدير. الثقل والخفة هنا ليســـا للموازين

كأداة، بل للأعمال ذاتها عند عرضها على هذه المعايير الإلهية. فمن كانت أعماله الصالحة ذات وزن وقيمة عند الله (ثقلت)، ومن كانت أعماله الصالحة قليلة أو باطلة لا قيمة لها (خفت).

- **عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ:** (عيشة) اسم هيئة يدل على نوعية الحياة. (راضية) صفة لها. التنكير هنا للإطلاق والنوعية، أي أنها حالة عيش فريدة، مطلقة في الرضا، لا يمكن تصور كمالها أو مقارنتها بأي عيش دنيوي. هي مرضية لصاحبها تمام الرضا، وهو راضٍ بها كل الرضا.
- **فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ:** تعبير بليغ ومزلزل.
  - **أُمُّهُۥ:** ليست الوالدة، بل هي استعارة للمرجع والمأوى والمصير الذي لا مفر منه، فالأمّ هي المقدّمة أيضًا والوجهة، فالكلام عن وجهته ومصيره.
  - **هَاوِيَةٌ:** من الجذر (هـ و ي) الدال على السقوط العميق والهلاك والانحدار المستمرّ في قعر جهنّم.
  - **المعنى:** إن مصيره ومأواه الذي سيأوي إليه ويحتضنه هو الهاوية (جهنم).

- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ:** تكرار الاستفهام للتهويل بشأن الهاوية. الهاء في "ما هيه" هي هاء السكت، لبيان نهاية الكلمة عند الوقف ولها أثر في تقوية الإيقاع وشدة الاستفهام.
- **نَارٌ حَامِيَةُۢ:** الجواب المفسر للهاوية. (نارٌ) بالتنكير للإطلاق والتهويل، أي نارٌ من نوع خاص، لا تشبه نار الدنيا. (حامية) من (ح م ي)، أي بالغة الغاية والنهاية في شدة حرارتها واتقادها.

مقالة السورة (القارعة)

دونكم القارعة! تلك الواقعة العظيمة التي تصدم وتقرع القلوب بهولها! وهل تدري أنت ما هي القارعة؟ أيّ شيءٍ أعلمك بحقيقتها؟ إنها أمرٌ يفوق كلّ تصوّر! ذلك اليوم الذي ينقلب فيه كل مألوف، يوم يتفرق فيه الناس ويضطربون حائرين ضعافًا كالذرّ المتطاير، وتفقد الجبال صلابتها ووزنها فتصبح كالصوف المندوف يتطاير في الهواء، فإذا كانت الجبال لا وزن لها، فأي شيء له وزن!

في ذلك اليوم، توضع معايير الحق والعدل لتقييم الأعمال (الموازين). وهناك يتحدد المصير بناءً على قيمة عمل الإنسان: فأما من كانت أعماله الصالحة ذات وزن وقيمة عند الله، فتكون كفّته قد رجحت، فمصيره إلى عيشةٍ من نوع فريد، مطلقة في الرضا والهناء. وأما من كانت أعماله الصالحة

خفيفة لا وزن لها، أو طغت سيئاته، فطاشت كفته، فإن مصيره ومأواه الذي سيأوي إليه ولا ملجأ له سواه هو الهاوية السحيقة! وهل لك أن تتخيل حقيقة تلك الهاوية؟ ما الذي أعلمك بماهيّتها؟! إنها نارٌ، نارٌ لا كنار الدنيا، بلغت الغاية في شدة حرارتها ولهيبها!

المعنى الشمولي (القارعة)

السورة تعمد إلى إنذار الناس من هول يوم القيامة، الذي ستكون له معاييره المختلفة، فحتّى الجبال لا وزن لها في ذلك اليوم، ولا وزن إلّا للأعمال الصالحة، وبسبب الأعمال يذهب كلّ في مصيره مفردًا، فإن كانت أعماله صالحة فإلى الجنة، وإن كانت غير ذلك فمصيره الجحيم.

وهي تخاطب عموم الناس، مذكّرة إيّاهم بفساد مقاييسهم الراهنة، فهم يحسبون حسابًا لسادة مكّة ويظنّونهم ذي وزن، فتخبرهم أنّ الوزن المعتبر هو الوزن في يوم القيامة، فإذا تذكّرنا صفات هؤلاء السادة بأنّهم يدّعون اليتيم ولا يطعمون المسكين، وغيرها مما ورد سابقا في سور كانت تتلى مع هذه السور في أسواق مكّة، عرفنا أنّ الكلام فيه استمالة لقلوب الضعفاء الذين يهمّشهم النظام الاجتماعيّ في مكّة.

نتوقف هنا عند سورة "القيامة". تأتي هذه السورة لتضع حقيقة "القيامة" في قلب المواجهة مع المنكرين والمستهزئين من عامة قريش وغيرهم. فبعد التأكيد على ميزان الأعمال في سورة القارعة، وعلى عدالة الحكم الإلهي في سورة التين، تركز سورة القيامة على إثبات حتمية البعث والجزاء ذاته، وتدحض شبهات المنكرين، وتكشف عن دوافعهم النفسية العميقة المتمثلة في حب العاجلة والرغبة في التحلل من المسؤولية، وتصوّر أهوال ذلك اليوم ولحظة الانتقال إليه (الموت) بصور حسية ونفسية بالغة التأثير.

إضاءات لغوية

- **لَآ أُقۡسِمُ:** الأظهر في فنّ النحو أن (لا) زائدة للتنبيه وتأكيد القسم، أي: أقسم قسمًا مؤكدًا. وقيل هي للنفي ردًا على المنكرين ثم يأتي ابتداء قسم. وكلاهما يفيد تعظيم المقسم به، لكن وفي كل الأحوال حتّى لو كان القسم منفيًّا فهو منفيّ عن شيء يستحقّ القسم به، فهو بذلك قسم.
- **بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ / بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ:** القسم بالقيامة لتأكيد وقوعها، وبالنفس اللوامة (صيغة مبالغة من اللوم، من الجذر ل و م) التي تلوم صاحبها على التقصير أو الشر، لإثبات وجود وازع فطري داخلي لدى الإنسان يشهد

بمسؤوليته وحاجته للجزاء، والأرجح أنّه لوم النفس لصاحبها يوم القيامة إذا ظهر الحقّ، والإتباع بالسؤال الذي تلاها قرينة هذا الفهم.

- **أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ:** استفهام إنكاري توبيخي على ظن الإنسان المنكر استحالة جمع عظامه البالية بعد الموت.
- **بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ:** (بلى) لإبطال الإنكار السابق. (قادرين) حال لفعل مقدّر (بلى نجمعها) تؤكد تمام القدرة. (نسوّي) من (س و ي) أي نعيد خلقه تامًا متقنًا. (بنانه) أطراف أصابعه.
- **لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ:** (يفجر) من (ف ج ر) أي ليشُقّ ستر الدين ويستمر في المعصية والفسوق. (أمامه) أي فيما يستقبله من أيام عمره. فالدافع لإنكار البعث هو الرغبة في التحلل من قيود المسؤولية والاستمرار في المعصية بلا رادع.
- **أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ:** (أيان) سؤال عن زمن وقوع أمر في المستقبل. وهذا له علاقة بما سبق من نية الفجور في ما بقي له من أيّام. سؤالهم هنا ليس لطلب العلم بل للاستهزاء.

- **بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ:** من (ب ر ق)، أي حار البصرُ ودهش وفتحت الأعين من شدة الفزع، حتّى لم يعد الإنسان قادرًا على الإبصار بوضوح وثبات.
- **خَسَفَ ٱلۡقَمَرُ:** (خسف) أي ذهب ضوؤه وأظلم تمامًا.
- **وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ:** أي قُرن بينهما في الطلوع من المغرب أو في ذهاب النور، للدلالة على اختلال النظام الكوني المعهود.
- **أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ:** سؤال يائس لا جواب له، يعبر عن استحالة الهروب من أهوال ذلك اليوم. (المفرّ) مكان الفرار.
- **لَا وَزَرَ:** (الوزر) الملجأ المنيع كالجبل. (لا) نافية للجنس، أي لا ملجأ مطلقًا ولا حصن يومئذ.
- **ٱلۡمُسۡتَقَرُّ:** اسم مكان من الاستقرار، أي المرجع والمصير النهائي. هو إلى الله وحده.
- **يُنَبَّؤُاْ... بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ:** يُخبَر الإنسان إخبارًا شاملًا بكل أعماله: ما قدمه في حياته، وما أخّره وأهمله أو تركه من آثار بعده.
- **بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ:** (بصيرة) تبدو مؤنّثة ولكنّها ليست تاء تأنيث، ولكن تاء إفراد ومبالغة، فهو شديد العلم بذاته، وهو حجة بالغة وشاهد عدل على

نفســـه، لا يحتاج إلى شـــاهد خارجي. شـــهادته ذاتية وملازمة له.

- **وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ:** (المعاذير) جمع مِعذار ومعذرة، وهي الأعـذار والحجج الواهيـة. أي حتى لو حـاول التملص وتقديم المبررات، فإن حجته القائمة من نفســـه تبطل كل أعذاره.

- **لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَـــانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ... إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ:** هذه الآيات تمثل وقفة توجيهية للنبي صلى الله عليه وسلم في خضـــم الحديث عن القيامة. (لتعجل به) ســـبب اللهج بالقرآن هنا هو التعجّل. هذا التعجل من النبي قد يكون مرتبطًا بســـياق اســـتعجال القوم ليوم القيامة وســـؤالهم المتكرر "أيان يوم القيامة؟"، ورغبة النبي في أن يأتيه الوحي بالجواب ســـريعًا. فتأتي الآيات لتطمئنه بأن الله هو المتكفل بجمع القرآن في صـــدره، وتيســـير تلاوته، وبيان معانيه في الوقت المناسب، فلا داعي لهذه العجلة. ثم يأتي الربط مع حال القوم في الآية التالية.

- **كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ:** (كلا) ردع وزجر. (بل) للانتقال إلى بيان الســـبب الجذري لموقفهم (وربما للتعجل البشـري عامة). (العاجلة) هي كلّ قريب غير مؤجّـل، وهي هنـا الـدنيـا. (تـذرون) أي تتركون وتهملون الآخرة، أو كلّ ما يتأخّر. فحب الدنيا والتعلق

بها، والرغبة في تحقيق الملذات الآنية، هو الذي يفسر استعجالهم في السؤال استهزاءً، وهو الذي يفسر إنكارهم للآخرة، وهو الدافع الذي قد يستحث حتى النبي على شيء من التعجل في تلقي ما يجيبهم به.

- **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ:** (ناضرة) من (ن ض ر): مشرقة حسنة يملؤها السرور والبهجة. (ناظرة) من (ن ظ ر): أي منتظرة متأنّية طامعة، فهي ناظرة إليه، وليس كما يظنّه بعض العلماء إبصارًا، وسيأتي تأكيد ذلك في الحالة المقابلة: تظنّ أن يفعل بها فاقرة، أي ما تخشى الأخرى وقوعه وتتوقعه.
- **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ:** (باسرة) من (ب س ر): كالحة عابسة بشدة. (تظن) أي توقن وتتوقع. (فاقرة) من (ف ق ر): الداهية العظيمة التي تكسر فقار الظهر. فهذه تخاف لحظة الحكم، والسابقة تنتظره.
- **كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ:** (كلا) ردع عن حب العاجلة وترك الآخرة. (بلغت) أي الروح. (التراقي) جمع ترقوة، عظام أعلى الصدر. بلوغ الروح التراقي كناية عن لحظة الموت والغرغرة.
- **وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ:** (راق) اسم فاعل من (ر ق ي)، أي من يرقيه وينجيه؟ وهي من الرقية، والرقية عادة عربية

قديمة بقراءة التعاويذ على المريض لحمايته. سؤال يائس ممن حول المحتضر عن أي طبيب أو علاج أو رقية تنفع.

- **وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ:** (ظنّ) هنا بمعنى أيقن المحتضَرُ أن ساعة الفراق قد حانت، أي فراق الدنيا والدخول في عالم الآخرة.
- **وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ:** ليس بالضرورة التفاف الساقين الحسي، فهذا التعبير يأتي لاضطراب الناس في المعارك، بل هو إعلان يوم القيامة بأنّه اضطراب الناس إذا بعثوا وحركتهم واختلاط سبلهم. وهذا الترتيب يدلّ على أنّ القيامة تقوم مع الموت، فدلالة الواو هي مطلق الجمع.
- **إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ:** (المساق) المرجع والمصير والمكان الذي يُساق إليه العباد. رغم اختلاط السبل ("التفاف الساق بالساق")، فإن الوجهة النهائية واحدة ومحددة: إلى الله وحده للحساب والجزاء.
- **فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ:** وصف لحال المكذب المعاند في الدنيا: لم يصدق بالرسالة، ولم يؤد الصلاة (التي تمثل الصلة العملية بالله من خلال طقس الصلاة أو من خلال الصلة بالعباد)، بل فعل نقيض ذلك:

كذب وأعرض. فالتولّي هنا ضـدّ الصـلاة، وهذه قرينة أخرى على معنى الصلاة اللغويّ الذي بيّناه سابقًا.

- **ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ:** (يتمطّى) أي يمشـي بتبختر وكبرياء وغرور، غير مكترث بالحقّ، عائدًا إلى أهله ومحيطه الذي يشاركه الضلال.
- **أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ:** تعليم الإنسـان بأولويّاته، وتذكير له بها، أي عليك أيّها الإنسـان أن تعطي الأولويّة لما له الأولويّة، ثم ما يليه إذا فرغت من الأولى، وأظنّ أنّ هذا قول النفس اللوّامة يوم القيامة، ولكنّه قول عام لا يختصّ بزمن أو مخاطب واحد.
- **أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى:** استفهام إنكاري يختم الحجة: أيظن هذا الإنسان أنه سيُترك مهملًا بلا تكليف ولا حساب؟ فلو كان كذلك لتبدّلت الأولويّات.
- **أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ ... أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ:** الاستدلال بالنشأة الأولى على القدرة على النشأة الثانية. من خلقه من نطفة مهينة ثم سـواه بشـرًا كاملًا ذكرًا وأنثى، أيعجزه أن يحيي الموتى؟ الاسـتفهام تقريري يؤكد كمال القدرة الإلهية على البعث. الباء في "بقادر" للتأكيد.

مقالة السورة

أُقسِمُ قسمًا مؤكدًا بيوم القيامة الذي لا ريب فيه، وأُقسِمُ بالنفس إذ تلوم صاحبها يوم القيامة! أيظنّ هذا الإنسان المنكر أننا لن نقدر على جمع عظامه بعد أن تبلى؟ بلى! إننا لقادرون، بل وقادرون حتى على إعادة تسوية أطراف أصابعه بدقتها! ليس إنكاره شكًا في قدرتي، كلا! بل هو يريد أن يستمر في فجوره وانحرافه فيما يستقبل من أيامه دون حسيب. ولذلك يسأل مستهزئًا مستعجلًا: متى هو يوم القيامة؟

فإذا حان وقته، حار البصرُ ودهش ولم يعد يبصر من هول ما يرى، وذهب ضوء القمر، واختل نظام الشمس والقمر فاجتمعا، عندها فقط يقول الإنسان في فزع مطلق: أين المهرب؟! كلا! لا ملجأ يومئذٍ ولا مهرب. إليّ أنا ربكم وحدي المصير والمستقر النهائي. في ذلك اليوم يُخبَر الإنسان بكل صغيرة وكبيرة، بما قدّمه من عمل وما أخّره. بل إن الإنسان في ذلك اليوم هو نفسه حجةٌ قائمةٌ وشاهدٌ عدلٌ على نفسه، ولو حاول أن يُلقي بكل أعذاره وحججه الواهية فلن تنفعه.

(ولا تعجل يا محمد بلسانك بالقرآن حين أُنزله عليك، فإن عليّ أنا جمعه في صدرك وتيسير تلاوته وتوضيح معانيه لك في وقته.) كلا! بل أنتم جميعًا أيها الناس تحبون العاجل حبًّا يجعلكم تنسون الآجل، لا سيّما هذه الحياة الدنيا العاجلة التي تتعلقون بها، وتتركون وتهملون أمر الآخرة الباقية.

في يوم القيامة، ســـتكون هناك وجوهٌ ناعمة مشـــرقة تتلألأ بالبهجة والسرور، تنتظر قرار ربّها لعلمها بما قدّمت. ووجوهٌ أخرى كالحة عابسـة مقطبة، تنتظر وتتوقع أن تنزل بها داهيةٌ عظمى تكسر فقار الظهر.

كلا! فلتنتبهوا قبل فوات الأوان! فالقيامة التي تسألون عنها هي بقرب الموت ذاته، إذا وصـــلت الروح إلى الحلقوم في لحظة النزع الأخير، وقيل في يأسٍ ممن حول المحتضـــر: هل من راقٍ يرقيه أو طبيب يشفيه؟ وأيقن هو بنفسه أن ساعة الفراق قد حانت، فقد قامت قيامته ورأى الناس منثورة تختلط سـبلها، وهم كلّهم سيساقون إلى الله، لا مصير إلّا إليه.

أمّا ذلك الإنسان المكذب، الذي لم يصدق بالحق في الدنيا، ولم يؤدّ حق الصـــلة بي والعبادة، ولكنه فعل النقيض: كذّب وأعرض. ثم مضـــى بعد ذلك إلى أهله يمشـــي مشـــية الكبر والخيلاء! لقد كان من واجبه كما هو من واجبكم أن يراعي أولويّاته، أيظنّ هذا الإنســـان أني ســـأتركه مهملًا كالبهائم بلا أمر ولا نهي ولا حســـاب! ألم يكن مجرد نطفة من منيّ يُراق! ثم صـــار علقة فخلقته وســـويته بشـــرًا كاملًا؟ فجعلت منه الجنســـين: الذكر والأنثى؟ أفليس ذلك الخالق العظيم الذي فعل كل هذا بقادرٍ على أن يحيي الموتى؟ بلى، إنه على كل شـــيء قدير!

المعنى الشمولي

تُقدم سـورة القيامة برهانًا قاطعًا وحاسـمًا على حتمية البعث والجزاء، داحضـةً شـبهات المنكرين وكاشـفةً دوافعهم النفسـية المتمثلة في حب العاجلة والرغبة في الفجور بلا حسيب. تؤكد السـورة كمال القدرة الإلهية على إعادة الخلق (حتى تسـوية البنـان)، وتقرر مبدأ المسـؤولية الفردية المطلقة حيث يكون الإنسـان شـهادةً وحجةً بالغةً على نفسـه ("بصـيرة") لا تغني عنه المعاذير.

والفكرة المحورية التي تبرز بوضـوح في بنية السـورة هي الإجابة عن سـؤال المنكرين المسـتهزئ "أيان يوم القيامة؟". فالقيامة التي يستعجلونها ليست حدثًا مؤجلًا في مستقبل بعيد فحسـب، بل إنها تبدأ فعليًا لكل إنسـان مع لحظة موته. يتضـح هذا من خلال تتابع تصـوير مشـهد الاحتضـار ("إذا بلغت التراقي"، "وقيل من راق"، "وظن أنـه الفراق") الذي ينتهي إلى القيامة وانبثاث الناس واضـطرابهم ("والتفّت السـاق بالسـاق")، والتي تمثل بداية دخوله في أهوال القيامة واختلاط أحوالها، ليأتي بعدها مباشرةً المصير الحتمي والوجهة الواحدة التي لا مفر منها ("إلى ربك يومئذ المسـاق"). فكأن القيامة تقوم على الفرد بمجرد موتـه، وعندها تتكشـف لـه الحقائق وتُعرض عليـه أعمـالـه وينتهي زمن العـاجلـة التي أحبهـا وأعرض بسببها عن الحق.

وبهذا المعنى، تصبح كل الحجج والصور في السورة - من القسم بالنفس اللوامة، إلى وصف الوجوه ومصائرها، إلى الاستدلال بالخلق الأول - مقدمات ضرورية لإثبات هذه الحقيقة الصادمة: أن القيامة التي تستعجلونها وتكذبون بها، إنما تأتيكم فرادى مع حلول آجالكم، وعندها لا ينفع التكذيب ولا تجدي المعاذير.

مقالات القرآن العظيم 27 | الهمزة

هذه السورة فيها لفتة نحبّ أن تصل كلّ قارئ لما سمّاه أصحاب عصر التدوين "التفسير"، ففيها مثال على غياب روح العربيّة عن الكثير من هذه الكتب. فرغم أنّ الآية الأولى تقول "ويل لكلّ همَزة لمَزة"، وكلمة "كلّ" هنا واضحة، فإنّهم يذهبون إلى أنّها تعني أميّة بن خلف أو الوليد بن المغيرة أو الأخنس بن شريق أو سواهم، ثم يعقّبون على ذلك بأنّها تعني الجميع.

وفوق ذلك، فإنّها تقرن بين الهمز واللمز بجمع المال، أي أنّ هذا الهمز واللمز له علاقة وثيقة بالغنى والفقر، ولأنّنا نعرف أنّ الرسول لم يكن فقيرا، فالهمز موجّه لمن اتّبع النبيّ من الفقراء، إمّا فيهم هم أو في الرسول نفسه إذ يتّبعه هؤلاء، ولكنّ الكتب تتعامل مع هذا على أنّها صفة أخرى لهذا الهمزة اللمزة وليس قرينة تساعد على فهم أيّ همز هو المعنيّ، مع الإقرار بعموم اللفظ. ثمّ إنّ كثيرا من التفاسير لا تربط بين اسم الحطمة وفعل النبذ الوارد بحال هذا الإنسان، ولا تربط شعور الخلود بالمال، ولا تربط حتّى العمد الممدّدة بفكرة أنّها موصدة، فيقولون أغلال وسوى ذلك ممّا هو بعيد لغة، وبعيد سياقًا.

لا أريد أن أكون همّازًا بمن تعلّمنا منهم كثيرًا، ولكنّ هذه السورة على بساطتها ووجود عدّة روايات في سبب نزولها،

وعلى اتّصـــال آياتها ببعض، قد تكون مثالًا على أنّ فكرتي الســـياق والخطاب من أهمّ ما يمكن أن يســـاعد على فهم نصوص السور، وهي أدوات لغوية أدبية حديثة، وإن كان لها أصولها القديمة غير الناضجة.

إضاءات لغوية

- **وَيْلٌ:** هي كلمة تهديد ووعيد، اسم فعل يفيد معنى الهلاك والخســران الشــديد، كانت العرب تســتخدمها في مقام التهديد والتحذير من عاقبة وخيمة. ورودها نكرة في مطلع الســـورة للتهويل، فهي وعيد مطلق بالدمار لمن يتصف بالصفات اللاحقة.
- **هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ:** صيغتا مبالغة على وزن (فُعَلَة)، تدلان على من يكثر من الفعل ويتخذه ديدنًا.
  - **هُمَزَةٍ:** من الجـذر (ه م ز) الـدال على الطعن والغمز الخفي. فـالهمزة هو الـذي يغتـاب النـاس ويطعن فيهم ويسـخر منهم في غيابهم بالإشـارة أو بالقول.
  - **لُّمَزَةٍ:** من الجـذر (ل م ز) الـدال على العيـب والطعن الظـاهر. فـاللمزة هو الـذي يعيـب النـاس ويحتقرهم ويواجههم بالسوء في حضورهم.

- **الجمع بينهما:** جاء الجمع بين الصيغتين ليشمل كل أشكال الطعن والعيب والسخرية، سرًا وعلانية. وفي سياق الدعوة، كان هذا الهمز واللمز غالبًا ما يتوجه ليعيب الفقر والحالة المتواضعة لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم، استعلاءً بالمال والجاه.

- **ٱلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ:** وصف لهذا الهمزة اللمزة. (جمع مالًا) أي جعل همّه وشغله تكديس الثروة. (وعدّده) من الجذر (ع د د)، ليس مجرد الإحصاء، بل هو التكرار والمبالغة في العدّ إما حبًا شديدًا للمال وتعلقًا به، وإما للتفاخر والتباهي به على الآخرين، وخاصة الفقراء، وإظهار الكثرة.

- **يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ:** (يحسب) أي يظن ظنًا فاسدًا لا أساس له. (أخلده) من (خ ل د)، أي جعله خالدًا لا يموت أو باقيًا لا يزول. وهذا يكشف عن علة نفسية عميقة؛ فالإنسان حين يستغرق في جانب يراه غير محدود في حياته (كتجميع المال الذي لا حد له)، يغفل وينسى الجوانب المحدودة بالضرورة، وأهمها عمره وزمنه المحدود، فيتوهّم أن ما يجمعه سيحميه من الفناء. وهو يتساوى مع الفقير بكونه يموت.

- **كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ:** (كلا) حرف ردع وزجر قاطع لهذا الحسبان الباطل. (لينبذنّ) فعل مؤكد باللام ونون التوكيد الثقيلة. (ينبذ) من (ن ب ذ)، وهو طرح الشيء وإلقاؤه باحتقار وإهمال. والمعنى هنا أعمق من مجرد الطرح، فهو يشير إلى أنه سيُعزل ويُفرد وحيدًا منبوذًا، نقضًا لتلك الوجاهة والمكانة الاجتماعية التي كان يسعى إليها ويظن أنه حصّلها بماله وهمزه ولمزه.
- **ٱلۡحُطَمَةِ:** صيغة مبالغة على وزن (فُعَلة) من الجذر (ح ط م) الذي يدل على الكسر الشديد والتهشيم. فهي اسم لجهنم أو لدركة فيها، سُميت بذلك لأنها تحطم وتكسر كل ما يُلقى فيها. هذا الاسم بحد ذاته يحمل معنى نهاية قوة المتكبر وتحطيم كبريائه الذي بناه على المال.
- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ:** استفهام للتهويل والتفخيم لشأنها، وللإشارة إلى أن حقيقتها أشد مما يمكن تصوره. وقد يكون فيه إشارة إلى أن هذا الوصف لجهنم (بكونها حطمة) هو بيان لأمر لم يكن معروفًا لهم بهذه الصفة من قبل، مما يزيد الرهبة.
- **نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ:** تعريف للحطمة. إضافتها إلى الله ("نار الله") يدل على شدتها وأنها ليست كنار الدنيا، وأنها عقاب إلهي مباشر. (الموقدة) اسم مفعول من (أوقد)، أي مُسعّرة ومُضرمة بأمر الله ومستمرة الاشتعال لا تنطفئ.

- **ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـــــدَةِ:** (تطّلع على) من (ط ل ع)، بمعنى تعلو وتصل وتغشى وتُشرف على، وقد تحمل معنى الكشف والمعرفة. (الأفئدة) جمع فؤاد، وهو القلب أو مركز العقل والشعور والبصيرة. والمعنى الحسّيّ أنّها تصل دواخل ما يلقى فيها ولا تحرق الجلد فقط، لكن قد نرى أنّ وصول النار إلى الأفئدة يعني أنها ليست مجرد عذاب للجسد، بل هي ألم نافذ يصل إلى أعمق ما في الإنسان، إلى مركز إحساسه ومشاعره وربما نواياه التي كانت تحركه للهمز واللمز وحب المال، مما يمثل غاية الألم والإهانة وكشف المستور.
- **مُّؤْصَدَةٌ:** اسم مفعول من (أوصد) أو (آصد)، أي مُطبَقة ومُغلقة الأبواب بإحكام شديد، فلا أمل في الخروج أو النجاة.
- **فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ:** (عمد) جمع عمود. (ممددة) أي طويلة شاهقة ممتدة. تأتي هذه العبارة بعد وصف الإغلاق ("مؤصدة") لتزيد صورة الإحكام واليأس؛ فهي مغلقة عليهم، وأسوارها أو أبوابها مثبتة بأعمدة عالية ممتدة تجعل محاولة تسورها أو الهرب منها مستحيلة تمامًا. إنها صورة للسجن الأبدي المحكم الذي لا يمكن اقتحامه.

مقالة السورة (الهمزة)

الويل والتهديد الشـــديد بالهلاك لكل من اعتاد أن يطعن في الناس ويغتابهم (يهمزهم)، وأن يعيبهم ويحتقرهم في وجوههم (يلمزهم)، خاصـــةً حين يكون عيبه موجهًا لفقرهم وحاجتهم، قاصدًا بذلك أتباع هذا النبيّ! ذلك هو شأن من جعل غايته جمع المال وتكديســه، ثم التفاخر بعدّه وحســابه أمام المحتاجين! إنه لفرط انهماكه في هذا المال الذي يظنه غير محدود، ينســـى حقيقة عمره المحدود، فيحســـب بظنه الفاســـد أن ماله هذا سيمنحه البقاء والخلود!

كلا! ليس الأمر كما يتوهم أبدًا! بل ليُطرحنّ هو وكل ما اغتر به طرحًا مهينًا، ليُفردَنّ وحيدًا منبوذًا في الحُطَمة، نقضًــا لتلك الوجاهة الزائفة التي بناها على الثروة واحتقار الخلق! وهل تدري أيها الســـامع ما هي الحُطَمة؟ ما الذي أعلمك بحقيقتها التي ربما لم تدرك كنهها من قبل؟ إنها تلك التي ســـتحطّم كل شـــيء فيه، وتُنهي قوّته وكبرياءه! إنها ناري أنا، نار الله التي أوقدتها بأمري، نارٌ عظيمة لا تخمد، لا تكتفي بإحراق الجلود، بل تنفذ لتصل إلى الأفئدة ومكنونات الصدور! إنها جهنم مغلقةٌ عليهم بإحكام تام، عالية الأسوار بعمدها الممتدة التي لا يمكنهم أبدًا تسورها أو الفرار منها!

المعنى الشمولي (الهمزة)

تقدم سورة الهمزة، في سياق الدعوة الجهرية بمكة، وعيدًا إلهيًا مركزًا ومباشرًا ("ويل")، وتوجهه إلى شخصية اجتماعية وأخلاقية محددة تمثل نموذجًا للغرور المادي وما يصاحبه من آفات سلوكية. السورة تفضح وتدين بشدة أولئك الذين يمارسون الهمز واللمز (الطعن والغيبة والعيب العلني)، وتربط هذا السلوك العدواني مباشرة بالانهماك المحموم في جمع المال وتعداده للتفاخر، والذي كان موجهًا في الغالب ضد فقراء المؤمنين في ذلك المجتمع الطبقي.

تكشف السورة عن الأساس النفسي لهذا الانحراف، وهو الوهم الناتج عن عبادة المال؛ حيث يظن صاحبه أن ثروته ستمنحه الخلود أو الأمان المطلق، ناسيًا محدودية وجوده وعمره أمام حقيقة الموت والحساب. يأتي الرد الإلهي "كلا" ليبدد هذا الوهم، ويقرر جزاءً يتناسب تمامًا مع الجريمة الموصوفة: فمقابل سعيه للوجاهة بالمال واحتقار الناس، سيكون مصيره "النبذ" (العزلة التامة والإلقاء باحتقار). ومقابل قوته وكبريائه المستمد من ثروته، سيلقى في "الحطمة" التي تسحق وتحطم كل شيء. ومقابل الأذى الصادر عن قلبه، ستصل النار إلى "الأفئدة". ومقابل حريته وغروره في الدنيا، سيكون في عذاب محكم الإغلاق ("مؤصدة") لا يمكن اقتحامه أو الهروب منه ("في عمد ممددة").

بهذا، تقدم السورة تحذيرًا قويًا من الانحراف الأخلاقي والاجتماعي الناجم عن عبادة المال والتعالي على الخلق، وتؤكد أن الوجاهة الدنيوية الزائفة لا قيمة لها، وأن الحساب الإلهي قادم بعقاب شديد ومناسب لطبيعة الجرم. إنها رسالة ردع للطغاة، وتذكير بقيم العدل والرحمة، وتسلية ضمنية للمؤمنين الذين يتعرضون للأذى بسبب إيمانهم أو فقرهم.

المعنى الشمولي

تربط سورة الهمزة بشكل عضوي بين السلوك الاجتماعي المؤذي المتمثل في الهمز واللمز - والذي كان في الغالب يستهدف فقراء المؤمنين استعلاءً بالمال والجاه - وبين جذوره النفسية والمادية المتمثلة في الهوس بجمع المال وتعداده للتفاخر، وما ينتج عن ذلك من وهم خطير بأن المال يمكن أن يمنح الخلود أو الأمان ("يحسب أن ماله أخلده")، ناسيًا بذلك حقيقة الموت التي يتساوى فيها مع من يحتقرهم.

وتأتي العقوبة الموصوفة متناسبة تمامًا مع الجريمة، ومبطلة لكل أوهام هذا الصنف من الناس: فمقابل سعيه للوجاهة والتمكن الاجتماعي من خلال المال والسخرية، سيكون مصيره "النبذ" (لِيُنبذنّ)، أي العزلة التامة والإلقاء باحتقار، نقضًا لمكانته المزعومة. ومقابل قوته وغروره المستمد من ثروته، سيلقى في "الحطمة"، تلك النار التي من شأنها تحطيم

كل قوة وكبرياء. ومقابل الأذى الصـــادر عن دواخل قلبه ("الأفئدة")، ســـتصـــل النار إلى تلك الدواخل ذاتها. ومقابل شعوره بالتمكن والحرية الظاهرية في الدنيا، سيكون مصيره في عذاب محكم الإغلاق ("مؤصـدة")، عالٍ لا يمكن تسـوّره أو الفرار منه ("في عمد ممددة").

نصـــل في تتبعنا لنزول القرآن المكي إلى مرحلة أخذ القرآن فيها يسلب ألباب سامعيه بقوّة بيانه وتأثيره، وهنا تأتي سورة "المرســلات" (قرابة 33 نزولًا). تمثل هذه الســورة منعطفًا مهمًّا وطورًا جديدًا في الخطاب القرآني. فبعد أن قُدمت البراهين وتجلت الآيات، يواجه القرآن هنا فئة محددة ليســت مجرد جاهلة أو مشركة بالمعنى العامّ، وليست بالضرورة من "الكفار" المحاربين للدعوة بشــكل مباشــر، بل هم فئة "المكذّبين"؛ أولئك الذين استمعوا للذكر، وشعروا بقوّة البيان القرآنيّ، لكنهم ظلّوا متشــكّكين ومتردّدين، وبالأخصّ أنّهم لا يكذّبون بالله، لكنّهم يكذبون بالوعد الأساســي الذي يحمله هذا الذكر وهو يوم القيامة والحســاب. ولأوّل مرة، نجد القرآن يوجه لهؤلاء "المكذبين" وعيدًا مباشــرًا وشــديدًا يتكرّر كالقصف: "ويلٌ يومئذ للمكذبين". إنها سورة الحسم والإنذار النهائي لهذه الفئة التي اســتمعت ولم تؤمن، ورأت النور وأصرت على التكذيب.

سنمرّ سريعًا على مفهوم التكرار خلال الإضاءات اللغويّة، لكن وجب علينا أن نذكّر بأنّ مســألة التكرار معروفة في فنّ البلاغة، وأنّنا عندما نراها يجب أن نعطي الكلام المكرّر وزنًا أكبر حسب نسبة تكراره، لا سيّما أنّ هذه المرّة الأولى التي نرى فيها هذا التكرار العالي، وقد كان لدينا فيما ســبق من

تكرار رأيناه في سورة "الكافرون" سبب أو فهم ما لهذا التكرار يخرجه من كونه محض تكرار، لكنّه هنا تكرار ظاهر.

إضاءات لغوية

- **وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا... فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا:** سلسلة قسم متتابعة تصف كيانات فاعلة غير مصرّح بها وإنّما بصفات لها. قال المفسرون إنها الرياح أو الملائكة، ولكن بالنظر إلى السياق العامّ الذي يتمحور حول القرآن وتكذيبه، وإلى كون القرآن هو "الذكر" الملقى، فإن الراجح - الذي يجمع كل هذه الصفات دون تكلف أو استبعاد لبعضها - هو أن القسم هنا بآيات القرآن نفسها أو بفاعليتها وتأثيرها:
  - **ٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا:** آيات القرآن التي تُرسَل وتُنزّل متتابعة كالعُرف، أو حاملةً للمعروف والحكمة، أو كما جرى العرف سابقًا في الكتب القديمة، أو أخيرًا وهذا هو الذي أراه أنّ العرف هنا هو الطيب.
  - **فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا:** آيات القرآن التي تعصف بالقلوب بقوتها وتقتلع الباطل من جذوره.

- **وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا:** آيات القرآن التي تنشر الهدى والعلم والرحمة انتشارًا واسعًا في الآفاق والنفوس.
- **فَٱلۡفَارِقَٰتِ فَرۡقٗا:** آيات القرآن التي تفرق بوضوح تام بين الحق والباطل، والهدى والضلال.
- **فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا:** آيات القرآن التي تلقي الذكر والموعظة في قلوب السامعين.
- **عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا:** فالغاية من إلقاء هذا الذكر هو الإعذار بإقامة الحجّة، وهكذا لا يكون لله على الناس حجّة بعدم الإخبار، أو الإنذار بالعواقب لمن أعرض.

- **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ:** جواب القسم مؤكدًا بحصر وجزم أن الوعد بالقيامة والجزاء أمر كائن لا محالة.
- **طُمِسَتۡ:** من الجذر (ط م س) أي ذهب نورها تمامًا، والكلام عن النجوم.
- **فُرِجَتۡ:** من الجذر (ف ر ج) أي شُقّت وفتحت فصارت أبوابًا وشقوقًا.
- **نُسِفَتۡ:** من الجذر (ن س ف) أي قُلعت من أصولها وذُرّيت كالتراب، فلم يبق لها أثر.

- **إذا الرسل أُقِّتَتْ:** من الجذر (و ق ت)، والرسل هنا ليسوا بالضرورة الأنبياء، وهذا من التشخيص، بدعوة أي شيء يرسله الله رسولًا. والتوقيت هنا أي ضرب الميعاد لكلّ ما يعدّ في الرسل، وربّما كان ذلك للشهادة على الأمم، في حال فهمنا أنّ الكلام عن الأنبياء.
- **لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ؟ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ:** استفهام للتهويل والتعظيم، وجوابه يحدد اسم ذلك اليوم وهويته: يوم الفصل بين الخلائق.
- **وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ:** استفهام آخر لزيادة التهويل والتفخيم لشأن هذا اليوم الذي يفوق تصور البشر.
- **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ:** (ويل) كلمة وعيد بالهلاك والعذاب الشديد. (يومئذ) أي في يوم الفصل ذاك. (للمكذبين) أي الذين كذّبوا بهذا اليوم وما فيه من حساب وجزاء. هذه اللازمة تتكرر عشر مرات في السورة لتكون كالطرق العنيف على أسماع وقلوب المكذبين، ونعرف من التكرار أنّ هذا هو محور السورة.
- **أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ... كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ:** الاستدلال بإهلاك الأمم السابقة المكذبة، والتأكيد على أن هذه سنة الله الجارية في كل المجرمين المكذبين في كل زمان. الاستفهام تقريري.

- **أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ... فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ:** الاستدلال بالنشأة الأولى للإنسان من ماء يعدّ مبذولًا ويحتقره الناس، ثم حفظه في رحم الأم (قرار مكين) إلى مدة معلومة، وتأكيد تمام قدرة الله على هذا الخلق والتقدير الدقيق. فمن قدر على البدء قادر على الإعادة. (مهين) من الإهانة. (قرار مكين) أي مستقر متمكن وهو الرحم. (قدر معلوم) أي أجل محدد. (فقدرنا) أي فجعلنا له قدَرًا. (فنعم القادرون) ثناء من الله على نفسه بتمام قدرته وحكمته.

- **أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا... وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا:** الاستدلال بنعم الله في الأرض. (كفاتًا) من (ك ف ت) أي وعاءً جامعًا تضم وتجمع على ظهرها الأحياء وفي بطنها الأموات. (رواسي شامخات) أي جبالًا ثابتات عاليات. (ماءً فراتًا) أي عذبًا سائغًا. كل هذه حجج على القدرة والنعمة تستوجب الإيمان والشكر لا التكذيب.

- **ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ:** أمر على سبيل التقريع والتوبيخ والتعجيز يوم القيامة. اذهبوا إلى العذاب الذي كنتم به في الدنيا تكذبون وتستهزئون.

- **ظِلّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ:** من الآيات التي ترسم صورة عن غيب لا نعلمه، ولا نعلم ماهيّته غير وصف القرآن له.

وقالوا فيه: هو دخان جهنم يتفرع إلى ثلاث فرق أو نواحٍ.

- **لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ:** هذا الظل المزعوم لا يقي من الحر ("لا ظليل") ولا يدفع شيئًا من لهب النار وحرها ("لا يغني").
- **بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ:** (شرر) ما يتطاير من النار. (كالقصر) أي ذات حجم كبير كأنّها قصر النخل أي أعناقها.
- **كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ:** (جمالة) قطيع الجمال، أي كأن هذا الشرر في لونه وسرعة حركته وكثرته مثل الإبل السوداء التي يميل لونها للصفرة، أو الإبل النحاسية. تشبيه آخر لزيادة الترويع من منظر الشرر المتطاير.
- **هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ:** وصف لحال المكذبين يوم القيامة: حالة من الخزي والبهت تخرس ألسنتهم، فلا هم ينطقون بحجة، ولا يُسمح لهم أصلًا بتقديم أي عذر لظهور الحقيقة وبطلان أعذارهم.
- **هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ:** إعادة التأكيد على هوية اليوم (يوم الفصل)، وبيان شموله لكل الأجيال.
- **فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ:** تحدٍّ وتعجيز مطلق. (كيد) أي حيلة أو تدبير للخلاص. إن كانت لكم أي قدرة على

الاحتيال للنجاة فافعلوها الآن. وهذا إعلان عن عجزهم التام.

- **إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٍ...:** بيان حال المتقين مقابل حال المكذبين. وصف نعيمهم بـــ(ظلال) حقيقية (مقابل ظل النار)، و(عيون) جارية، و(فواكه) مما يشـــتهون، مع الإذن لهم بالأكل والشـــرب الهنيء بســـبب أعمالهم، وبيان أن هذا جزاء المحسنين.
- **كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ:** أمّـا حـال المكـذّبين اليوم فهو أنّهم يـأكلون ويتمتّعون، فهنـا خطـاب تهـديد ووعيد للمكذبين في الدنيا. تمتعوا متاعًا قليلًا زائلًا في الدنيا، فإنكم مجرمون ستحاسبون على إجرامكم.
- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ:** بيان لصفة من صفاتهم الدالة على كبرهم وعنادهم في الدنيا: رفض الخضـــوع والانقيـــاد لأمر الله (والركوع هنـــا رمز للخضـــوع والصلاة).
- **فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ:** اســـتفهام إنكـاري يختم الســـورة. (بعده) أي غير هذا القرآن الواضـــح البين بما فيـه من حجج وبراهين وإنـذارات. إذا لم يؤمنوا بهـذا الحديث، فبأي شـــيء آخر يمكن أن يؤمنوا؟ لا شـــيء أصدق ولا أبين منه.

مقالة السورة (المرسلات)

أُقسِمُ بآياتي التي أُرسلها متتابعة بالمعروف والحكمة، فآياتي التي تعصف بالباطل في القلوب عصفًا، وآياتي التي تنشر الهدى والمعرفة نشرًا، فآياتي التي تفرق بين الحق والباطل فرقانًا، فآياتي التي تلقي الذكر والموعظة في الصدور، ليكون ذلك إعذارًا لمن قبل الهدى، أو إنذارًا لمن اختار الإعراض. أُقسم بكل هذه الصفات لقُرآني، إنّ ما توعدون به من بعث وحساب لهو كائنٌ لا محالة!

فإذا جاء ذلك اليوم، مُحيت النجوم، وانشقّت السماء، وتناثرت الجبال، وجُمع الرسل لوقت الشهادة. لأي يوم عظيم أُجّل ذلك كله؟ لقد أُجّل ليوم الفصل بين الحق والباطل! وما أعلمك أيها الإنسان ما هو يوم الفصل؟!

(الويلُ والعذاب الشديد يومئذٍ للمكذبين) أنتم يا من سمعتم الذكر وكذبتم بهذا اليوم.

ألم نهلك الأجيال الأولى التي كذبت رسلها قبلكم؟ ثم أتبعناهم بأمثالهم من اللاحقين؟ هكذا نفعل بكل المجرمين المكذبين.

الويلُ للمكذبين!

ألم نخلقكم من ماء ضعيف مهين؟ فجعلناه يستقر في الرحم إلى أجل معلوم؟ فنحن الذين قدّرنا ذلك الخلق أدق تقدير، فنِعمَ القادرون نحن!

الويلُ للمكذبين!

ألم نجعل لكم هذه الأرض وعاءً يجمعكم أحياءً وأمواتًا؟ وجعلنا فيها جبالًا راسيات عاليات، وسقيناكم ماءً عذبًا تشربون منه؟

الويلُ للمكذبين!

سيُقال لكم أيها المكذبون في ذلك اليوم بازدراء: انطلقوا إلى العذاب الذي طالما به في الدنيا كذبتم! انطلقوا إلى ظلٍ من دخان جهنم يتفرع ثلاثًا، لا هو بالظل الذي يقي من الحر، ولا هو بالذي يدفع شيئًا من لهيب النار وحرها! إنها نارٌ ترمي بشررٍ ضخمٍ كالبناء الشاهق، كأنه قوافلُ إبلٍ داكنة اللون!

الويلُ للمكذبين!

هذا يومٌ يلجمهم فيه الخزي فلا ينطقون بكلمة، ولا يُسمح لهم حتى بتقديم الأعذار لبطلانها!

الويلُ للمكذبين!

هذا هو يوم الفصل الذي جمعناكم فيه مع الأولين والآخرين! فإن كانت لكم أي حيلة أو قدرة لتنجوا من عذابي، فجربوها الآن!

الويلُ للمكذبين!

أما المتقون الذين خافوا هذا اليوم واتقوني في الدنيا، فهم في ظلالٍ وارفة وعيون ماءٍ جارية، يتنعمون بفواكه متنوعة مما تشتهيه أنفسهم. يقال لهم: كلوا واشربوا طعامًا وشرابًا هنيئًا طيبًا، جزاءً بأعمالكم الصالحة. إنا هكذا نجزي المحسنين.

الويلُ للمكذبين!

فيا أيها المكذبون المستمرون على عنادكم، كلوا في دنياكم هذه وتمتعوا متاعًا قليلًا زائلًا، فإنكم في حسابي مجرمون!

الويلُ للمكذبين!

إن من إجرامكم واستكباركم أنكم إذا دُعيتم إلى الخضوع لي، أبيتم ورفضتم!

الويلُ للمكذبين!

فإذا كنتم لا تؤمنون بهذا القرآن، الذي أقسمتُ بصفاته في مطلع السورة، والذي قدم لكم كل هذه الحجج والإنذارات، فبأي كلامٍ أو حديثٍ بعده يمكن أن تؤمنوا؟!

المعنى الشمولي

تمثل سورة المرسلات مرحلة خطابية جديدة ومتقدمة في الدعوة المكية، حيث يتوجه الخطاب بحدة وقوة مباشرة إلى فئة "المكذبين" - أولئك الذين سمعوا القرآن، وربما أخذت ألبابهم بلاغته، لكنهم أصروا على إنكار رسالته الأساسية

حول البعث والجزاء ("يوم الفصل"). وتتميز السورة ببنية فريدة وقوية تعتمد على التكرار الإيقاعي للازمة التهديدية "ويلٌ يومئذ للمكذبين" عشر مرات، لتربط كل حجة أو مشهد بالعاقبة الوخيمة للتكذيب به.

القسم الافتتاحي، وفق القراءة الأعمق والأكثر اتساقًا مع السياق، يقسم بآيات القرآن نفسها وبصفاتها المتعددة (مرسلة، عاصفة، ناشرة، فارقة، ملقية للذكر)، مما يجعل القرآن هو الحجة والمُقسم به في آن واحد، ويؤكد بشكل قاطع على حقيقة الوعد الذي يحمله وهو وقوع يوم الفصل.

تتوالى بعد ذلك مقاطع السورة، كل مقطع يقدم حجة أو مشهدًا، وينتهي بالتهديد المباشر للمكذبين: حجة إهلاك الأولين، حجة الخلق الأول من ماء مهين، حجة تسخير الأرض ونعمها، ثم وصف تفصيلي لمشاهد العذاب وحال المكذبين فيه من انطلاق نحو ما كذبوا به، ووصف مأواهم وظل النار والشرر المتطاير، وحالهم من العجز والخزي وعدم القدرة على النطق أو الاعتذار، وانتهاءً بالتحدي الإلهي الذي يكشف عجزهم المطلق.

وفي مقابل هذا، تعرض السورة لمحة سريعة لنعيم المتقين، لتكتمل صورة الجزاء العادل وتزيد من حسرة المكذبين. ثم تختم بخطاب أخير لهم في الدنيا يكشف عن إجرامهم واستكبارهم المتمثل في رفض الخضوع لله، وتتساءل في

ختامها عن إمكانية إيمانهم بأي حديث آخر إن لم يؤمنوا بهذا القرآن الواضــح، أي إذا لم يكن هذا القرآن ســبيلًا لعهد الأمن بينكم، فما الذي سيكونه!

نصل في مسيرتنا مع ترتيب نزول السور إلى سورة "ق"، وهي سورة مكّيّة جاءت بعد المرسلات، تأتي هذه السورة في مرحلة متقدمة من الدعوة بمكة، حيث يشتدّ الجدل حول قضية البعث والنشور، وتتكرر شبهات المنكرين وتساؤلاتهم الاستبعادية. فتأتي سورة "ق" لتقدم ردًّا شاملًا حاسمًا، مؤكّدة حقيقة البعث والجزاء، ومستعرضة دلائل القدرة الإلهية في الآفاق والأنفس والتاريخ، ومصورة مشاهد القيامة والموت والحساب بدقّة مؤثّرة، وهذه سمة السور القرآنية في هذه المرحلة، كذلك فإنّها تقدّم التثبيت والتوجيه للنبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة التكذيب. إنها سورة تبدأ بالقسم بالقرآن المجيد، فقد كان القسم بآيات القرآن في المرسلات، والآن هو بالقرآن صراحة، وتختم بالأمر بالتذكير به، لتؤكّد أنه المرجع والحجة والذكرى.

إضاءات لغوية

- **قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ:** البدء بالحرف المقطع (ق) وهو حرف فيه معنى التعجّب والتنبيه هذا صوتيًّا، يليه القسم بالقرآن نفسه ووصفه بأنه "مجيد" (من الجذر م ج د، أي ذو مجد وشرف وعظمة ورفعة)، وهو من أسماء الله التي أطلقت على كلامه. هذا القسم الافتتاحي يربط السورة كلها بالقرآن ويؤكد على جلالة مصدر الحجج

التي ستأتي، كذلك فإنّ هذا القسم لا يأتي جوابه صراحة، بل هو مقدّر، وهو في رأيي ملحق بالقسم بالمرسلات مذكّر به.

- **بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ:** (بل) للإضراب عن كلام مقدر للمشركين أو للانتقال لبيان حالهم. سبب إنكارهم وتعجبهم هو أن يأتيهم نذير وتحذير من بشر مثلهم ("منذر منهم"). هذا يعكس استكبارهم ونظرتهم المادية.
- **فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ:** الفاء للترتيب والسببية. وصفهم بالكافرين هنا يكشف عن حقيقة موقفهم: التعجب ليس بريئًا بل هو غطاء للكفر والجحود. قولهم "شيء عجيب" هو استنكار وتقليل من شأن النبوة والرسالة.
- **أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ:** الاستفهام للإنكار والاستبعاد الشديد. كيف يمكن العودة ("رجع") بعد الموت والتحول إلى تراب؟ وصفهم للرجع بأنه "بعيد" أي مستبعد جدًا في ظنهم.
- **قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ:** رد إلهي على استبعادهم. (قد علمنا) تأكيد على العلم التام. (ما تنقص الأرض منهم) أي ما تأكله الأرض وتبليه من أجسادهم بعد الموت. فعلم الله محيط بكل ذرة منهم وإن تفرقت. (كتاب حفيظ) أي كتاب متّصف بالحفظ،

والكتاب ليس بالضرورة أن يكون صحفًا فكلّ عهد موثق كتاب، أي إنّ لنا هذا العلم، ولدينا عهد محفوظ ننجزه.

- **بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ:** (بل) إضراب آخر يكشف حقيقة موقفهم. لم يكن استبعادهم نتيجة تفكير، بل سببه التكذيب بالحق (القرآن والرسالة) فور مجيئه. (فهم في أمر مريج) الفاء للسببية. (مريج) من الجذر (م ر ج) أي مختلط مضطرب لا قرار له ولا ثبات. تكذيبهم للحق أوقعهم في حيرة وتناقض واضطراب فكري ونفسي.

- **أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ... وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ:** دعوة للنظر والتفكر في إتقان خلق السماء كدليل على القدرة. (فروج) جمع فرج، أي شقوق أو فتوق أو عيوب. نفي الفروج دليل كمال الخلق.

- **وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ:** الاستدلال بخلق الأرض مبسوطة ممهدة، وإرساء الجبال فيها، وإنبات أصناف النباتات الجميلة المبهجة (بهيج من ب هـ ج). كلها أدلة قدرة ونعمة.

- **تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ:** بيان الغاية من هذه الآيات الكونية: لتكون سببًا للتبصر والاتعاظ والتذكر. لكن الانتفاع بها مخصوص بـــ "كل عبد منيب" أي يؤوب إلى الله.

- **مَآءً مُّبٰرَكًا / حَبَّ ٱلْحَصِيدِ / بَاسِقَٰتٍ / طَلْعٌ نَّضِيدٌ:** وصف لنعم الماء والنبات. (مبارك) من البركة وأصلها التراكم. (حب الحصيد) أي حب الزرع الذي يُحصد. (باسقات) أي نخل طويلات عاليات. (طلع نضيد) أي متراكب منظم بإتقان.
- **كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ:** فمثل ما فعلنا كلّ هذا ممّا سبق من تعداد قدرة الخلق، وكما ينبت النبات من الأرض، فكذلك خروجكم من الأرض أي بعثكم، وهنا الكلام ليس حرفيًّا، بل يعني به أنّ الذي قدر على ذلك قادر على هذا.
- **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ... كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ:** الاستدلال بتاريخ الأمم المكذبة (قوم نوح، أصحاب الرس، ثمود، عاد، فرعون، إخوان لوط، أصحاب الأيكة، قوم تبع). (كلٌّ) أي كل واحد من هؤلاء الأقوام. (فحقّ وعيدِ) أي فثبت وتحقق وعيدي لهم بالعذاب. الياء في "وعيدي" حذفت للتخفيف ومراعاة الفاصلة.
- **أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ:** استفهام إنكاري. (عيينا) من العيّ، أي هل عجزنا وأعيا علينا الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الثاني؟ (بل هم في لبس) أي في خلط وشك وحيرة من أمر الخلق الجديد (البعث). المشكلة في فهمهم لا في قدرة الله.

- **وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ:** تأكيد على علم الله المحيط بأخفى ما في النفس (الوسوسة من و س و س). وقربه المطلق من الإنسان، أقرب إليه من حبل وريده (عرق في العنق متصل بالقلب، يُضرب به المثل في شدة القرب). هذا يقتضي كمال العلم والقدرة على المحاسبة.

- **إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ... رَقِيبٌ عَتِيدٌ:** وصف لرقابة الملائكة الموكلين بتسجيل أعمال الإنسان وأقواله. (المتلقيان) الملكان. (قعيد) أي ملازم قاعد للرصد. (رقيب) مراقب لا يغفل. (عتيد) حاضر مهيأ للكتابة. تأكيد على دقة الإحصاء والرقابة، وهو كلّه وصف بلاغيّ لرقابة الله على الإنسان، فالأمر ليس محصورًا باليمين أو الشمال أو عدد الملائكة أو أنّ عملها هو تسجيل الأقوال، الأمر وصف لمشهد بلاغيّ يوصل فكرة الرقابة الكلّيّة.

- **وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ:** (سكرة الموت) أي شدته وغمرته التي تغشى العقل. (بالحق) أي جاءت بموعدها الحقّ، أو جاءت حقًّا. (تحيد) أي تميل وتهرب وتحاول الابتعاد عنه. الموت حقيقة لا مفر منها.

- **وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ:** النفخ في الصور هو إيذان ببدء القيامة. (يوم الوعيد) أي اليوم الذي يتحقق فيه وعيد الله للكافرين.
- **وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ:** (سائق) يسوقها إلى المحشر أو إلى مصيرها. (شهيد) يشهد عليها بأعمالها (الملك الموكل، أو أعضاؤها، أو عملها نفسه).
- **فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ:** (غطاءك) أي غطاء الغفلة الذي كان يحجبك في الدنيا أيّها الإنسان، نكشفه يوم القيامة. (حديد) متّصف بالحدّة (صفة مشبّهة من حادّ) أي قوي نافذ، ترى به الحقائق التي كنت عنها غافلًا.
- **قَرِينُهُۥ:** رفيقه الملازم له في الدنيا، المقترن به. (عتيد) أي حاضر جاهز.
- **أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ:** أمر للمَلَكين (السائق والشهيد)، أو لملائكة العذاب بإلقاء الكافر في جهنم. وعلينا التذكير بمعنى الملائكة الذي مرّ من قبل، وهي كلّ ما ملك الله أمره فأوكل له مهمّة، صيغة التثنية للتأكيد أو لوجود ملكين.
- **كَفَّارٍ عَنِيدٍ / مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ:** صفات متتابعة لهذا الذي يُلقى في النار: شديد الكفر والجحود، شديد

العناد للحق، شـــديد المنع للخير الواجب عليه (كالزكاة والنفقة أو الخير عامة)، متجاوز للحدود، شـاكٍّ في الدين أو موقعٌ لغيره في الريبة.

- **قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ...:** القرين (رفيقه) يتبرأ من إضـــلاله، مدعيًا أن صـــاحبه كان في ضـــلال بعيد من نفسه.
- **قَالَ لَا تَخۡتَصِـمُواْ لَدَيَّ... مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ...:** رد الله تعالى عليهم بمنع الخصـومة، فالحكم قد صـدر بناءً على الوعيد الســـابق، والقول الإلهي نافذ لا يتغير، والجزاء قائم على العدل التام ("وما أنا بظلام للعبيد").
- **هَلۡ مِن مَّزِيدٖ:** سؤال جهنم لا يدل بالضرورة على طلبها للمزيد، بل هو كناية عن ســـعتها الهائلة وأنها لم تمتلئ بعد، أو هو تعبير عن الغيظ.
- **وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ:** (أزلفت) أي قُرّبت وأُدنيت للمتقين تكريمًا لهم.
- **لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ:** (أواب) صيغة مبالغة من (أ و ب)، أي كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والطاعة. (حفيظ) أي كثير الحفظ لحدود الله وأوامره وعهوده.

- **مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ:** تفسير للأواب الحفيظ: الذي يخاف الله غيبا دون أن يراه أو يرى برهانا عليه، وأقبل على الله بقلب تائب راجع إليه.
- **ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ:** أمر تكريم بدخول الجنة بسلام وأمان، مع بيان أن هذا اليوم هو طور الخلود، والخلود يعني السكينة أو الأبديّة.
- **وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ:** أي وعندنا فوق ما يشاءون ويتمنون زيادة من النعيم لا تخطر لهم على بال، وأعظمها النظر إلى وجه الله الكريم.
- **وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ...:** تذكير تاريخي أخير. (كم) للتكثير. (قرن) أي أمة أو جيل. (أشد منهم بطشا) أي كانوا أقوى من كفار مكة.
- **فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ:** (نقبوا) من (ن ق ب)، أي جالوا وساروا وبحثوا وفتشوا والتنقيب مبالغة في كل ذلك، إما لطلب القوة والسيطرة، أو بحثًا عن مفر عند نزول العذاب.
- **هَلۡ مِن مَّحِيصٍ:** (محيص) أي مهرب أو منجى. استفهام إنكاري، أي لم يكن لهم أي مهرب من عذاب الله رغم قوتهم وتنقيبهم.

- **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ:** التأكيد على أن في هذه القصص والمواعظ تذكرة، ولكن لمن؟ لمن له قلب واعٍ يدرك ويتفكر، أو لمن أصغى بسمعه بتركيز وحضور ذهن ("وهو شهيد" أي حاضر القلب والذهن يراقب أفكاره ويشهد عليها.

- **وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ:** (لغوب) أي تعب أو إعياء. نفي أي تعب عن الله تعالى بعد خلق السماوات والأرض في ستة أيام (ستّة أطوار أو مراحل)، ردًا على معتقدات باطلة وتأكيدًا لكمال القدرة.

- **فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ...:** أمر للنبي بالصبر على أذى المكذبين، والاستعانة على ذلك بالتسبيح المقرون بالحمد في أوقات محددة (قبل الشروق والغروب، وفي الليل، وعقب الصلوات - أدبار السجود).

- **وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ... يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ:** توجيه للنبي بالاستماع والترقب لليوم الذي ينادي فيه المنادي للبعث من مكان قريب يُسمِع الجميع، يوم يسمعون صيحة البعث بالحق الذي لا مراء فيه، وهو يوم خروج الموتى من قبورهم.

- **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ:** تقرير لمطلق القدرة الإلهية على الإحياء والإماتة، وأن المرجع والمصير إليه وحده.
- **يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ:** صورة بلاغيّة لا نعرف كيف تكون على الحقيقة يوم القيامة ولكنّها وصف لخروجهم السريع من الأرض، وكأنّها تتشقّق عنهم يوم البعث، وتأكيد على أن هذا الجمع والحشر هين يسير على الله تعالى.
- **نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ:** ختام يطمئن النبي بأن الله أعلم بأقوال المكذبين، ويحدد له مهمته: لست مسلطًا عليهم لتجبرهم على الإيمان، بل مهمتك هي التذكير بهذا القرآن، والتذكير إنما ينفع من يخشى وعيد الله ويخافه.

مقالة السورة (ق)

أُقسِمُ بهذا القرآن ذي المجد والعظمة! إن البعث الذي تنكرونه لحقٌّ! كلا، بل أنتم تعجّبتم أن جاءكم نذيرٌ منكم، فقال الكافرون منكم استكباراً: هذا الذي جاء به شيء عجيب! هل إذا متنا وصرنا تراباً نعود للحياة؟ تلك عودةٌ مستبعدة في ظنكم! لكن أُخبركم: لقد أحطتُ علماً بكل ما تأكله الأرض من أجسادكم، وعندي عهدٌ محفوظ بإعادتكم سأنجزه. ليس الأمر شكاً لديكم

بقدر ما هو تكذيب بالحق لما جاءكم، وهذا التكذيب أوقعكم في اضطراب وحيرة لا قرار معها!

أفلا تنظرون إلى السماء فوقكم، كيف رفعتها بناءً متقناً وزينتها دون أي عيوب؟ وإلى الأرض كيف بسطتها ومهّدتها وجعلت فيها جبالاً ثوابت وأنبتُ فيها من كل صنفٍ بهيج؟ جعلتُ كل ذلك سبيلاً للإبصار والتفكر وتذكرةً لكل عبدٍ راجعٍ إليّ. ونزّلتُ من السماء ماءً مباركاً، فأنبتُ به حدائق غنّاء وحب الزرع الذي تحصدون، والنخلَ الطوالَ بثمرها المتراكب المنظم؟ كل ذلك رزقاً لكم. وكما أُحيي بهذا الماء أرضاً ميتة، فكذلك سيكون خروجكم من القبور يوم البعث!

ولا تظنوا أنكم بِدعٌ في التكذيب، فلقد كذّبت قبلكم أممٌ كثيرة: قوم نوح وأصحاب الرس وثمود، وعاد وفرعون وقوم لوط، وأصحاب الأيكة وقوم تُبّع. كل هؤلاء كذّبوا رسلهم، فحلّ بهم وعيدي وثبت عليهم. أفترون أن الخلق الأول قد أتعبنا وأعجزنا حتى نعجز عن إعادتكم خلقاً جديداً؟ كلا! بل أنتم في شك وحيرة من أمر هذا الخلق الجديد!

تذكّروا أني خلقتُ الإنسان وأعلم أخفى ما يدور في نفسه، وأنا أقرب إليه من حبل وريده. واعلموا أن عليكم رقابة تامة شاملة، فكل قول أو فعل مُحصى ومسجّل بدقة متناهية. وستأتيكم حتماً شدة الموت وغمرته بالحق الذي لا مفر منه، ويقال لكم: هذا هو الموت الذي كنتم منه تفرّون! ثم يُنفخ في

الصور، فذلك هو يوم تحقق الوعيد. وتأتي كل نفس إلى ساحة الحساب ومعها من يسوقها ومن يشهد عليها. ويُقال لك أيها الغافل: لقد كنت في الدنيا في غفلة عن هذا اليوم، فالآن أزلنا عنك حجابك، فبصرك اليوم حادٌّ ترى به الحقائق!

وقال رفيقه الموكل به: هذا سجلُّ عمله حاضرٌ لديّ! فيُؤمر بإلقاء كل كفّار شديد الكفر، عنيدٍ أمام الحق، شديد المنع للخير، متجاوز للحدود، موقعٍ لغيره في الريبة، ذلك الذي أشرك معي إلهاً آخر؛ يُؤمر بإلقائهما في العذاب الشديد! وهناك يتبرأ منه قرينه، فأقول لهم: لا فائدة من جدالكم هنا، فقد أرسلت إليكم الوعيد في الدنيا، وحكمي نافذ لا يتغير، ولن أظلم أحداً. يومها أقول لجهنم: هل امتلأتِ؟ فتقول: هل من مزيد؟!

وفي المقابل، تُقرَّب الجنة للمتقين الذين اتقوني في الدنيا. ويقال لهم: هذا هو النعيم الموعود لكل من كان كثير الرجوع إليّ تائباً، حافظاً لحدودي، من خشيني بالغيب وآمن بي دون رؤية أو برهان مادي، وجاء بقلب مقبل عليّ تائب. ادخلوا الجنة بسلام وأمان، فذلك هو يوم الخلود الأبدي! لكم فيها كل ما تشتهون وتتمنون، وعندي لكم فوق ذلك زيادة من النعيم تفوق تصوركم!

فلا تغتروا بقوتكم يا أهل مكة! فكم أهلكتُ قبلكم من أمم كانوا أشد منكم قوة، جالوا وبحثوا في البلاد طلباً للسيطرة أو

المهرب، فهل وجدوا من محيص أو مفر من عذابي؟ كلا! إن في كل ما ذكرتُ لَعبرةً وتذكرة، ولكن لمن؟ لمن كان له قلب حيٌّ يعقل، أو لمن أصغى بسمعه بتركيز وحضور ذهن يراقب ما يسمع ويتفكر فيه.

وتذكروا أني خلقتُ السماوات والأرض وما بينهما في ستة مراحل ولم يصبني أي تعب. فاصبر يا محمد على أقوالهم المكذبة، واستعن على ذلك بتسبيحي وحمدي في الصباح والمساء وفي الليل وعقب الصلوات. واستمع وتأهب لذلك اليوم الذي يُنادى فيه للبعث، يوم يسمع الخلائق صيحة الحق، يوم الخروج من القبور. إنا نحن من يحيي ويميت، وإلينا المصير. يوم تتشقق الأرض عنهم فيخرجون مسرعين، وذلك الجمع والحشر هينٌ يسير علينا. نحن أعلم بما يقوله هؤلاء المكذبون، ولستَ أنت مسلَّطاً عليهم لتجبرهم على الإيمان. فمهمتك فقط أن تذكّر بهذا القرآن من كان في قلبه استعداد للاتعاظ وخوفٌ من وعيدي.

المعنى الشمولي (ق)

إن مقولة سورة "ق" الأساسية، والتي تتضح بتتبع خطها النفسي، هي التأكيد القاطع على حقيقة البعث والجزاء التي جاء بها القرآن المجيد، في مواجهة حالة الاضطراب والحيرة التي يعيشها المكذبون بسبب إنكارهم للحق. تبدأ السورة بمواجهة حالة التعجب والاستبعاد الصادرة عنهم، ثم تنتقل

لعرض آيات الخلق الكونية والتاريخية ليس فقط كبرهان على القدرة، بل كـــ"تبصرة وذكرى" تهدف لإيقاظ القلوب المنيبة من غفلتها وإخراجها من حيرتها.

ثم يتصاعد الخطاب ليخاطب الفرد مباشرة، محيطاً إياه بشعور الرقابة الإلهية المطلقة والعلم المحيط بأخفى وســـاوس النفس والقرب الذي يفوق حبل الوريد، مع تصـــوير مشـــهد الرقابة الدقيقة لتأكيد جدية الأمر. وتنتقل الســـورة لتواجه الإنســـان بحقيقة الموت الصـــادمة التي لا مفر منها، ثم بأهوال القيامة التي تكشـف الغطاء وتجعل البصـر "حديداً"، فلا يبقى مجال للشك أو الإنكار.

وفي ذروة المواجهة يوم الفصـل، تبرز السـورة حالة العجز المطلق للمكذب، مقابل الطمأنينة والنعيم والرضـــا للمتقين الأوابين الخاشـين بالغيب. هذا التقابل الحاد يهدف إلى تعميق الشـعور بالخسـارة الهائلة للمكذبين، وتقديم النموذج الإيجابي لمن استجاب للذكرى.

تختم السورة بتوجيه النبي إلى الصبر والاستعانة بالتسبيح، وتحديد المنهج الأخير للدعوة: التذكير بالقرآن لمن يمتلك الاســـتعداد للتلقي، أي فمن لم يكن في قلبه هذا الخوف فلن تنفعه الذكرى. فالســـورة إذن رحلة من مواجهة حيرة المنكر، إلى تقديم آيات التبصـر، إلى الإحاطة برقابة الله، إلى صـدمة

الموت والقيامة، إلى حسم المصير، وانتهاءً بالتركيز على من بقي فيه أمل للهداية.

تأتي سورة "البلد" (وهي الخامسة والثلاثون في ترتيب النزول التقريبي الذي اعتمدناه) لتخاطب الإنسان، وخاصةً أهل مكة، في قلب واقعهم ومحيطهم المقدس. فبعد سورة "ق" التي ركزت على حتمية البعث ودحض شبهات المشكّكين، وبعد سورة "المرسلات" التي وجهت وعيدًا مباشرًا للمكذّبين، تأتي هذه السورة لتربط بين قدسية "البلد الأمين" الذي يعرفونه ويعتزون به، وبين الحقيقة الكونية لطبيعة الحياة الإنسانية المجبولة على الكبد والمشقة، مقدمةً لهم مفترق طرق حاسم بين سبيل الشقاء وسبيل النجاة المتمثل في اقتحام عقبة الفضيلة والتراحم. إنها دعوة للتفكر في معنى الوجود والمسؤولية في إطار المكان الذي يقدّسونه، ومحاولة لاستمالة قلوبهم عبر بوابة عزتهم ببلدهم.

إضاءات لغوية

- **لا أقسم بهذا البلد**: تأكيد للقسم بالبلد الحرام (مكة)، وحرف "لا" قد يأتي للتنبيه وتوكيد القسم وتعظيمه. القسم بالمكان الذي يعظمونه مدخل قوي لنفوسهم.
- **وأنت حِلٌّ بهذا البلد**: جملة اعتراضية ذات معانٍ متداخلة. (حِلّ) من الجذر (ح ل ل) قد تعني المقيم الحالّ فيه، وهو النبيّ، مما يزيد البلد شرفًا بوجوده، وقد تعني ما دمت فيه، وقيل: قد تعني أنه مستحلٌّ فيه، أي أنه رغم

حرمة البلد، فإن قتالك الكافرين فيه سيكون حلالًا لك ولقومك لرد العدوان (كما حدث يوم الفتح وإن كانت السورة مكية، فالإشارة للمستقبل واردة)، أو أنه إشارة لما يعانيه النبي فيه من أذى رغم مكانته وكون البلد بلدًا حرامًا تعاهد الناس على عدم القتال فيه. هذا التداخل يبرز المفارقة بين قدسية المكان ومعاناة الرسول فيه. والرأي الأخير هو أقرب الآراء للقصد في رأيي.

- **ووالد وما ولد**: قسم بالكائن البشري في تعاقبه وتناسله. قيل آدم وذريته، أو إبراهيم وإسماعيل (بناة البيت وأهل البلد)، أو هو قسم بكل والد وبكل مولود، ليشمل كل السلسلة الإنسانية التي تشترك في السمة التالية، وكعادة القرآن يكون القسم مرتبطًا بمقولة السورة الرئيسة، فهو على ذلك أقرب ما يكون للمعنى المطلق للإنسان.
- **لقد خلقنا الإنسان في كبد**: جواب القسم مؤكدًا. (كبد) من الجذر (ك ب د)، ويعني المشقة والتعب والمكابدة والشدة. فطبيعة الحياة الإنسانية منذ الولادة حتى الموت مقرونة بالمجاهدة والمعاناة لا سيّما بجهاد الأهل أن يحفظوا بنيهم.
- **أيحسب أن لن يقدر عليه أحد**: استفهام إنكاري على غرور الإنسان الذي ينسى طبيعته المخلوقة للمشقة،

فيظن أنه بلغ من القوة والمنعة ما يجعله فوق القدرة والمساءلة.

- **يقول أهلكت مالًا لبدًا**: مقولة هذا الإنسان المغرور متباهيًا. (أهلكت) أي أنفقت وأضعت. (لبدًا) من (ل ب د) أي كثيرًا متراكمًا بعضه فوق بعض كاللبد. هو يفتخر بإسرافه وتبذيره للمال، ظانًّا أن هذا دليل قوة ومكانة، لا دليل حمق وغفلة.

- **أيحسب أن لم يره أحد**: استفهام إنكاري آخر على غفلة هذا الإنسان. أيظن أن إنفاقه هذا وتصرفاته كانت في خفاء ولم يطلع عليها خالقه الذي سيحاسبه؟

- **ألم نجعل له عينين، ولسانًا وشفتين**: تذكير بنعم الإدراك (العينين) والتعبير والبيان (اللسان والشفتين) التي وهبها الله للإنسان، وهي أدوات الفهم والتواصل والتمييز التي كان يجب أن ترشده للصواب بدل الغرور، فإذا كان الله مانح البصر للإنسان فهو البصير به من باب أولى.

- **وهديناه النجدين**: (هديناه) أي بيّنا له وأرشدناه ووضحنا أمامه. (النجدين) مثنى نجد، وهو الطريق المرتفع الواضح. والمقصود طريق الخير وطريق الشر، سبيل السعادة وسبيل الشقاء. فالله لم يتركه هملاً، بل أبان له السبيلين.

- **فلا اقتحم العقبة**: الفاء للتفريع على ما سبق. (اقتحم) من (ق ح م)، وهو الدخول في الأمر بشدة وصعوبة ومجاهدة. (العقبة) الطريق الصعب الشاق في الجبل، وهي هنا استعارة للمهمة الشاقة التي تتطلب عزمًا وتضحية، وهي تجاوز الشح والغرور وصعود مرتقى الفضيلة. جاءت بصيغة الماضي "فلا اقتحم" للدلالة على أن هذا هو الواقع المؤسف لهذا الصنف من الناس؛ لم يختر سلوك هذا الطريق الصعب رغم وضوحه أمامه.

- **وما أدراك ما العقبة**: استفهام للتهويل والتفخيم لشأن هذه العقبة، وبيان عظمتها وصعوبتها وأهميتها، وتحفيز لمعرفتها والسعي إليها.

- **فكُّ رقبة**: هذا وما بعده تفسير لهذه العقبة الصعبة. (فكّ) أي تخليص وتحرير. (رقبة) أي نفس مملوكة (عبد أو أمة). فتحرير الإنسان من العبودية هو أول درجات اقتحام العقبة.

- **أو إطعام في يوم ذي مسغبة**: (مسغبة) من (س غ ب)، أي مجاعة شديدة. إطعام المحتاج في وقت الشدة والمجاعة هو المرتقى الثاني.

- **يتيمًا ذا مقربة**: (ذا مقربة) أي يتيمًا من ذوي القرابة والرحم، فالعناية به آكد.

- **أو مسكينًا ذا متربة**: (مسكينًا) هو المحتاج الذي أسكنته الحاجة. (ذا متربة) أي ألصقته الحاجة بالتراب لشدة فقره وعدم امتلاكه شيئًا، فهو في حضيض الحاجة.

- **ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة**: (ثم) للتراخي في الرتبة والأهمية لا في الزمن، فكل ما سبق من فك رقاب وإطعام لا يُعتد به في النجاة ما لم يقترن بالشرط الأساسي والأعلى: أن يكون فاعله منتميًا لجماعة المؤمنين (آمنوا: التزموا بعهد الأمان والثقة)، وأن تكون هذه الجماعة متصفة بخلقين عظيمين تمارسهما فيما بينها: التواصي (الحث المتبادل) على الصبر وتحمل المشاق في سبيل الحق، والتواصي على التراحم والشفقة فيما بينهم.

- **أولئك أصحاب الميمنة**: الإشارة بـ(أولئك) للبعيد لعلو منزلتهم، أي من فعل الأفعال السابقة. (الميمنة) من اليُمن والبركة.

- **والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة**: في المقابل، الذين جحدوا بآياتنا هم أهل الشؤم والخسران. (المشأمة) من الشؤم، وهم أهل النار.

- **عليهم نار مؤصــدة**: (مؤصــدة) أي مطبقة مغلقة عليهم بإحكام كما سبق في سورة الهمزة، فلا مخرج لهم.

مقالة السورة

أُقسِمُ قسمًا عظيمًا بهذا البلد الحرام، مكة، الذي يتشرّف بأنك يا محمد مقيمٌ فيه تعاني ما تعاني، وأُقسِمُ بالوالد ومن تناسل منه، لقد صممتُ الحياة الإنسانية وجعلتها مليئة بالمشقة والتحديات والكبد. أيظنّ هذا الإنسان المغرور، لفرط ما أوتي من قوة أو مال، أنه لا قوة فوق قوته ولا أحد يقدر عليه؟

يتفاخر قائلًا: لقد أنفقتُ مالًا كثيرًا متراكمًا! أيظنّ أن إنفاقه هذا، سواء كان في خير أو شر أو تبذير، كان خافيًا عني ولم أره؟ ألم أمنحه أدوات الإدراك: عينين يبصر بهما؟ وأدوات البيان: لسانًا وشفتين؟ وبصّرته وأوضحت له الطريقين المرتفعين: سبيل الخير وسبيل الشر؟

لكنه للأسف، لم يختر اقتحام ذلك المرتقى الصعب، ذلك الطريق الشاقّ! وما عساك تدرك عظمة وأهمية هذا الطريق الصعب؟ إنه يبدأ بتحرير النفوس من الرقّ (فكّ رقبة)، أو بإطعام الطعام في أيام المجاعة الشديدة، خاصةً لليتيم القريب الذي هو أولى بالرعاية، أو للمسكين الذي بلغ به الفقر والفاقة أن التصق بالتراب.

فمن فعل ذلك وكان قد انضـــمّ إلى جماعة المؤمنين الملتزمين بعهد الأمان والثقة، تلك الجماعة التي ديدنها الحث المتبادل على الصـــبر في مواجهة مشـــاقّ الحياة وتكاليف الإيمان، والحث المتبادل على الرحمة والشفقة فيما بينهم.

أولئك الذين جمعوا بين هذه الأعمال وذلك الانتماء الإيماني والأخلاقي هم أصـــحاب البركة واليمن والســـعادة الأبدية. أما الذين جحدوا بآياتنا الواضحة فهم أصحاب الشؤم والخسران، ومصيرهم نارٌ مغلقةٌ عليهم لا فكاك منها.

المعنى الشمولي

تخاطب سورة البلد أهل مكة مباشرة، بادئة بالقسم ببلدهم الذي يعظمونه ("هذا البلد")، لتذكرهم بحقيقة الحياة الإنســـانية المشـــتركة: إنها مليئة بالمشـــقة والمكابدة ("كبد"). وفي هذا السياق، تواجه السورة الغرور البشري المتمثل في الاغترار بالقوة أو التباهي بالمال، موضحة أن هذا المسلك يتجاهل نعم الله ورقابته والطريقين الواضحين أمامه ("وهديناه النجدين").

إن الطريق الحقيقي لخير أهل مكة وخير أبنائهم ليس في هذا الغرور الزائف، بل في تحدي النفس واختيار المســـلك الأصعب، "اقتحام العقبة". وتفسر السورة هذه العقبة بأعمال المروءة والتضـــحية كتحرير الرقاب وإطعام المحتاجين، خاصة في أوقات الشدة ولذوي القربى والمساكين المعدمين.

لكن جوهر النجاة والفلاح الحقيقي لهم ولأجيالهم يكمن في الشرط الأساسي: أن تنبع هذه الأعمال من انتماء صادق لجماعة المؤمنين، تلك الجماعة التي تتواصى فيما بينها بالصبر على مشاق الحق والتراحم فيما بينهم. فهذا هو السبيل الوحيد ليكونوا من "أصحاب الميمنة" أهل السعادة واليُمن في هذا البلد وفي الآخرة، وبدونه يكون المصير إلى "أصحاب المشأمة" في نار مغلقة.

مقالات القرآن العظيم 31 | سورة الطارق

تأتي سورة "الطارق" (السادسة والثلاثون في ترتيب النزول التقريبي) لتكمل الرسالة التي بدأت في السور السابقة مثل "المرسلات" و"ق" و"البلد". فإذا كانت "البلد" قد ركزت على كبد الإنسان ومسؤوليته في الاختيار داخل البلد الحرام، فإن "الطارق" تأتي لترفع الأنظار إلى السماء، مؤكدة على الحفظ الإلهيّ، وحتمية البعث وكشف الأسرار، وقوة القرآن كقول فصل في مواجهة مؤامرات المكذبين وكيدهم. كلّ هذا في أجواء الجهر بالدعوة وما يصاحبه من تشكيك واستهزاء ومحاولات لصرف الناس عن القرآن، فتقدم السورة طمأنة

للمؤمنين بـأن كـل نفس محفوظـة ومراقبـة، وأن الحق الـذي يحملونه غالب، وأن كيد الأعداء مردود عليهم، وأن الله يمهلهم لوقت معلوم.

إضاءات لغوية

- **والسماء والطارق**: قسم بالسماء وبالطارق. (الطارق) من الجذر (ط ر ق)، وهو الآتي ليلًا في لغة العرب.
- **وما أدراك ما الطارق؟ النجم الثاقب**: استفهام للتهويل والتفخيم، ثم تفسير للطارق بأنه النجم الثاقب. (الثاقب) من (ث ق ب)، قيل هو الذي يشقّ الظلام بنوره، وقيل هو الشهاب الذي ينجم (ينبثق) ويثقب السماء، وكلاهما ممكن في سياق الحفظ والمراقبة فيما سيأتي بعد ذلك.
- **إن كل نفس لما عليها حافظ**: جواب القسم. (إنْ) هنا مخففة من الثقيلة أو نافية بمعنى "ما". (لمّا) بمعنى "إلا" أو اللام للتوكيد و"ما" زائدة. والمعنى على كل الأحوال: ما من نفسٍ إلا وعليها رقيب يحفظها.
- **فلينظر الإنسان مم خلق**: الفاء لترتيب التفكر على حقيقة الرقابة. دعوة للإنسان الغافل أو المنكر للبعث أن يتأمل في أصل خلقته إذ كان ضعيفًا وحفظه الله حتّى كبر واستوى في رعاية الله.

- **خلق من ماء دافق**: (دافق) اسم فاعل من (د ف ق)، أي يندفع بقوة. وهو وصف لسائل الرجل (المني).

- **يخرج من بين الصلب والترائب**: (الصلب) من الصلابة ومن التوسّط، وهي أيضًا عظام الظهر للرجل. (الترائب) المتماثلة وهي على الأرجح أضلاع الصدر. وهذا من معتقدات العرب إذ قالوا إنّ فلان من صلب فلان.

- **إنه على رجعه لقادر**: (إنه) أي الله الخالق. (رجعه) أي إعادة الإنسان إلى الحياة بعد موته. (لقادر) مؤكد باللام. فمن حفظه في موضع الضعف إذ هو ماء ليحيط به الرحم وليتخلّق إنسانًا، فهذا قادر على إرجاعه أيضا.

- **يوم تبلى السرائر**: (تبلى) من (ب ل و)، أي تُختبر وتُكشف وتُمتحن. (السرائر) جمع سريرة، وهي ما يُسره الإنسان في نفسه من نوايا وعقائد وأسرار. فذلك اليوم هو يوم انكشاف الحقائق الباطنة وظهورها، لا مجرد حساب الأعمال الظاهرة.

- **فما له من قوة ولا ناصر**: في ذلك اليوم، يفقد الإنسان كل قوة ذاتية تمنعه من العذاب، وكل ناصر خارجي ينصره أو يدافع عنه. فهو وحيد مجرد أمام الحقيقة وكشف الأسرار.

- **والســماء ذات الرجع**: قســم آخر بالســماء المتصــفة بالرجع. (الرجع) من (ر ج ع)، وهو عودتها إلى حال من أحوالها من مطر أو من ترتيب الفلك. القســم بها كدليل على اســتمرارية التدبير الإلهي وقدرته على التكرار والإعادة.

- **والأرض ذات الصدع**: قسم بالأرض المتصفة بالصدع. (الصدع) من (ص د ع)، وهو الشق. فالأرض تتشقق لخروج النبات منها. القسم بها كدليل على قدرة الله على الإخراج والإحياء من الموات.

- **إنه لقول فصل**: جواب القسم الثاني. (إنه) أي القرآن، أو القول بيوم الحساب، (لقول فصل) أي قول قاطع حاسم يفصل بين الحق والباطل، وبين الجد والهزل.

- **وما هو بالهزل**: نفي قاطع لكون وعد القرآن باليوم الآخر مجرد وعيد فارغ أو كلام هازل. تأكيد على جدّيته وأهمّيّته ومصدره الإلهيّ.

- **إنهم يكيدون كيدًا**: (إنهم) أي الكفار والمكذبون. (يكيدون) من (ك ي د)، أي يدبرون المكايد والمؤامرات سرًا ضد الرسول والقرآن والمؤمنين. (كيدًا) مصدر للتأكيد، أي كيدًا عظيمًا.

- **وأكيد كيدًا**: الله تعالى يقابل كيدهم بتدبير إلهي محكم يبطله ويعكسه عليهم. المقابلة تحمل معنى الغلبة والقوة الإلهية.
- **فمهّل الكافرين أمهلهم رويدًا**: أمر للنبي صلى الله عليه وسلم. (مهّل) من التمهيل وهو الإمهال والإنظار. (أمهلهم) تكرار للتأكيد والمواساة. (رويدًا) تصغير "رود" بمعنى قليلًا أو برفق، أي أمهلهم إمهالًا قصيرًا أو هينًا، فإن عذابهم قريب وهلاكهم وشيك.

مقالة السورة (الطارق)

أُقسِمُ بالسماء وبمن يزورها ليلا "الطارق"! وكيف عساك تدرك حقيقة هذا الطارق؟ إنه ذلك النجم الذي يثقب السماء (يخترقها بذاته أو بنوره)! أُقسِمُ بذلك على حقيقة راسخة: ما من نفسٍ بشرية إلا ولها من الله حافظٌ.

فإذا كان الأمر كذلك، فلينظر هذا الإنسان الغافل أو المنكر للبعث في أصل خلقته ليدرك قدرة خالقه وحفظه له؛ لقد خُلق من ذلك السائل المتدفق بقوة، الذي يخرج من بين مناطق وسط جسده من موضع بين عظم صلب وآخر متماثل في جسد والديه كما تعتقدون. إن الذي حفظه في

تلك الحالة حتّى أنشأه من هذا الأصل المتواضع لهو قادرٌ تمام القدرة على إعادته إلى الحياة بعد فنائه.

وتلك الإعادة ستكون في يومٍ تُختبر فيه الخبايا وتُكشف فيه النوايا وما أُسِرّ في الصدور. وهنالك، يقف الإنسان مجردًا، لا قوة ذاتية تمنعه ولا نصير خارجيّ يخلّصه.

وأُقسِمُ مرّة أخرى بالسماء التي تعود بما فيها من دورات الأفلاك والطقس، وبالأرض التي تتشقق فتُخرج الحياة مرّة بعد مرّة! إن هذا الوعد بالبعث والحساب، أو هذا القرآن الذي ينبئكم به، لهو قولٌ قاطعٌ حاسمٌ يفصل بين الحق والباطل، وليس هو باللعب أو الكلام العابث.

إن هؤلاء المكذبين المنكرين لهذا القول الفصل لَيدبّرون في الخفاء المكائد والمؤامرات ليصدّوا الناس عن هذا الحق ويشكّكوهم فيه. وأنا أيضًا أُدبّر أمري تدبيرًا يعلو على كيدهم ويُبطله ويحيق بهم. فلا تستعجل عليهم يا محمد، بل أمهل هؤلاء الكافرين وأنظرهم، أمهلهم زمنًا قليلًا يسيرًا.

المعنى الشمولي (الطارق)

تؤكد سورة الطارق، في سياق المواجهة الجهرية، على حقيقتين محوريتين لدعم المؤمنين وردع المنكرين: الأولى هي الرقابة الإلهية الشاملة والحفظ الدقيق لكل نفس ("إن كل نفس لما عليها حافظ")، والثانية هي حتمية البعث

والجزاء ("إنه على رجعه لقادر") حيث تنكشف السرائر ويزول كل ستر ("يوم تبلى السرائر"). وتستدل السورة على ذلك بالقسم بالظواهر الكونية الموحية (النجم الثاقب) الذي يحفظ الله السماء رغم اختراقه لها، وبالنظر في أصل الخلق الإنساني وحفظ الله له، وبالقدرة الإلهية المتجلية في دورات السماء والأرض (ذات الرجع وذات الصدع).

وفي مواجهة مؤامرات المكذبين وتشكيكهم ("إنهم يكيدون كيدًا")، تعلن السورة أن هذا القرآن (أو الوعد الإلهي) هو "قول فصل" لا هزل فيه، وأن الله يقابل كيدهم بتدبير غالب ("وأكيد كيدًا"). وتختتم بتوجيه النبي إلى تمهيلهم لوقت قصير ("رويدًا")، مما يبث الثقة في قلوب المؤمنين بالنصر الإلهي القادم، ويؤكد أن المواجهة محسومة لصالح الحق مهما بدا كيد الباطل عظيمًا في الظاهر.

مقالات القرآن العظيم 32 | سورة القمر

تأتي سورة "القمر" (السابعة والثلاثون في ترتيب النزول التقريبي) في المرحلة التي بتّ تعلمها، إذ كان المشركون المكذّبون يطلبون آيات أخرى غير القرآن، والقرآن يذكّرهم ويذكّر النبيّ بأنّ الآيات الكبرى لم تمنع تكذيب المكذّبين في الأمم السابقة، وها هي سورة القمر تقدم إنذارًا حاسمًا ومباشرًا باقتراب يوم القيامة، الذي بتنا نعلم من سور سابقة أنّه يأتي بمجرّد الموت، مستخدمةً أسلوبًا بلاغيًا لافتًا يعتمد على التكرار والمشاهد التاريخية والكونية الصادمة. فبعد أن عرضت السور السابقة دلائل القدرة الإلهية وموازين المسؤولية وكيد المكذبين، تأتي هذه السورة لتضع المكذبين في مواجهة مباشرة مع حتمية الساعة وعواقب الإعراض عن الذكر، مؤكدةً أن القرآن هو الذكرى الميسرة الكافية لمن أراد أن يتذكر.

اللافت في مطلع السورة التصريح القاطع باقتراب الساعة مقترنًا بحدث كونيّ يتعلق بالقمر: {اقتربت الساعة وانشق القمر}، واستخدام صيغة الماضي في الفعلين ({اقتربت}، {انشق}) هو أسلوب بلاغي معهود في القرآن وفي كلام العرب للتعبير عن تحقق الوقوع وحتميته مستقبلًا، وكأنّ الأمر قد حدث فعلًا لشدة التيقّن منه. وقد يُفهم هذا الانشقاق كعلامة كونية مستقبلية للساعة، أو قد يُفهم، وهو ما يتسق

بقوة مع السياق المباشر الذي يصف إعراضهم الفوري عن أي آية، بأن الأمر قد "انشقّ" أي اتّضح وضوحًا تامًّا كأنّه القمر المنشق، ولم يعد فيه أي لبس. فمهما كانت طبيعة هذه الآية الكونية، فإن ردة فعل المكذبين واحدة، كما تفضحها الآية التالية: {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر}، مما يدلّ على أن جوهر المشكلة ليس غياب الآيات، بل الإصرار على التكذيب واتباع الأهواء.

إضاءات لغوية

- **اقتربت الساعة وانشق القمر**: جملة خبرية نحوًا ولكنّها بلاغيّة تستخدم الفعل الماضي ({اقتربت}، {انشق}) للدلالة على التحقق والحتمية للحدث المستقبلي (الساعة وانشقاق القمر كعلامة لها ترافقها ولا تسبقها أو اتّضاح أمرها)، وهو أسلوب بلاغي لتهويل الأمر وتأكيد وقوعه، أمّا اقترابها فهي على مسافة وقوع أجل كلّ منّا كما عرفنا من سوَرٍ سابقة، وأمّا توكيد وقوعها فقد جاء بخيار استخدام الفعل.
- **وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**: تركيب شرطي يكشف عن الطبيعة المتجذرة للتكذيب لديهم؛ فأي آية مهما كانت وضوحها ستقابل بالإعراض والاتهام بالسحر المتتابع أو الذي يعرفونه من قبل.

جواب الشرط ({يعرضوا ويقولوا}) يوضّح ردّة فعلهم الثابتة.

- **وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر**: بيان لسبب إعراضهم: التكذيب واتباع الهوى. وجملة {وكل أمر مستقر} هي حقيقة تقريرية بأن كل شيء له نهاية وغاية يستقر عليها، سواء أمرهم أم أمر الحق.
- **ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر، حكمة بالغة فما تغن النذر**: إخبار مؤكد بـ(اللام وقد) بأن أخبار الأولين جاءتهم وفيها رادع كافٍ، وأنها تمثل حكمة تامة، لكن الاستفهام الإنكاري {فما تغن النذر} يبين أن النذر لا تجدي مع من صمّم على الإعراض.
- **فتولّ عنهم**: أمر للنبي بالإعراض عن هؤلاء المعاندين الذين لا تنفع فيهم النذر، وترك أمرهم ليوم الحساب.
- **يوم يدع الداع إلى شيء نكر، خشّعًا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر، مهطعين إلى الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر**: وصف بلاغي متتابع لمشهد البعث والقيامة باستخدام الحال ({خشّعًا}، {مهطعين}) والتشبيه ({كأنهم جراد منتشر}) لرسم صورة الذل والفزع والكثرة المضطربة والسرعة نحو الداعي، وختمها بقول الكافرين الذي يعكس إقرارهم المتأخر بشدّة يوم القيامة.

- **فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر**: تفصـــيل لتكذيب قوم نوح؛ لم يكتفوا بالتكذيب القولي بل أتبعوه بالاتهام بالجنون والزجر العملي العنيف.
- **فدعا ربه أني مغلوب فانتصـر**: دعاء موجز بليغ يعكس شدة العجز وطلب النصرة الإلهية. والفاء في {فانتصر} تفيد ترتيب الطلب على حالة الغلبة.
- **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر**: تصـــوير بلاغي لقوة الطوفان باســـتخدام أفعال الفتح والتفجير ({فتحنا}، {فجرنا}) ووصـــف الماء بالانهمار، وكلمة {التقى} التي توحي بقوة الالتحام، وختمها بـ{على أمر قد قدر} للتأكيد على التدبير الإلهي المحكم.
- **وحملناه على ذات ألواح ودســـر**: كناية عن الســـفينة، ووصفها بأبسط مكوناتها (ألواح ومسامير أو ألياف) قد يشـــير إلى ضـــعفها المادي الظاهر مقابل قوة الطوفان، مما يبرز أن النجاة كانت بالحفظ الإلهي.
- **تجري بأعيننا جزاء لمن كان كُفِر**: أي تجري الســـفينة محفوظة بمرأى منا ورعايتنا، مكافأةً لنوح الذي كُذِّب وكُفر به وبهديه.

- **فكيف كان عذابي ونذر؟**: استفهام تقريري وتهويلي يتكرّر بعد ذكر كلّ أمّة مُهلَكة، للتأكيد على شدة العاقبة وحقيقة الإنذارات التي سبقتها.

- **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟**: جملة تتكرر لتكون لازمة تعقيبية على السؤال عن عذاب الأقوام السابقة، تؤكد أن القرآن هو الذكرى الميسرة والبديل الكافي عن طلب الآيات الحسية أو الغفلة عن عبر التاريخ، وتختتم باستفهام توبيخي وتحفيزي: هل من متعظ به؟

- **إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا في يوم نحس مستمر، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر**: وصف لعذاب عاد بالريح الشديدة الباردة (صرصرًا)، في يوم مشؤوم عليهم، مع تشبيه بليغ لقوتها في اقتلاعهم كأنهم أصول نخل فاسدة.

- **أبشرًا منا واحدًا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر؟ أؤلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر؟**: استفهامات إنكارية تعكس منطق ثمود المعوج في التكذيب، القائم على الاستكبار والحسد والتشكيك في اصطفاء الرسول، ثمّ إنّهم يعترضون على اتبّاع بشر واحد منهم، ثم يستنكرون اختياره هو بينهم.

- **سيعلمون غدًا من الكذاب الأشر**: وعيد إلهي مباشر بأن المستقبل القريب سيكشف حقيقة الكاذب المبالغ في كذبه.
- **إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر**: إخبار بكون الناقة اختبارًا لهم، وأمر لصالح بالانتظار والصبر.
- **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر**: تحديد لنظام تقسيم الماء، كلمة {محتضر} تؤكد أن لكل فريق (هم والناقة) دوره وحضوره لأخذ نوبته.
- **فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر**: إيجاز بليغ يصف الجريمة: استدعوا أشقاهم، فتناول الأمر بجرأة وقوة ({تعاطى})، ونفذ الجريمة ({فعقر}). الفاءات المتتالية تظهر سرعة وقوع الجريمة.
- **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر**: وصف لعذاب ثمود بالصيحة الواحدة المهلكة، وتشبيه بليغ لحالهم بعدها بالهشيم اليابس الذي يجمعه باني الحظائر.
- **ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر**: بيان لفحش قوم لوط ومحاولتهم الاعتداء على ضيوفه (الملائكة)، وعقابهم الفوري بطمس الأعين، مع الأمر {فذوقوا} الذي يجمع بين العقوبة والتوبيخ.

- **أكفـاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر؟ أم يقولون نحن جميع منتصر؟**: سلسلة استفهامات إنكارية موجهة لمكذّبي مكّة الذين يتّبعون كفّار مكة: هل هؤلاء أفضـــل أو أكثر مَنَعةً من تلك الأمم المهلكة؟ هل لديكم حصـانة مكتوبة في الكتب السـابقة؟ أم تظنون أن جمعكم وقوتكم ستحميكم؟

- **سـيهزم الجمع ويولون الدبر**: نبوءة مسـتقبلية بهزيمة كفّار مكـة وهزيمتهم، إمّـا في الدنيـا أو بـالعذاب أو في القيامة.

- **بل السـاعة موعدهم والسـاعة أدهى وأمر**: (بل) للإضـراب عن كون هزيمتهم الدنيوية هي نهاية الأمر، فالعذاب الحقيقي هو السـاعة، وهي أشـد هولًا وأعظم مرارة.

- **يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر**: وصـف لحال المجرمين في النار؛ السـحب على الوجوه قمة الإهانة، والأمر {ذوقوا} للتوبيخ، و{مس سقر} تعبير يصور شدة حر النار، والمسّ المداخلة ليس فقط المقاربة والتلاصق.

- **إنا كل شـيء خلقناه بقدر**: تقرير لمبدأ القضـاء والقدر الإلهي الشامل والدقيق لكل شيء.

- **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر**: بيان لسرعة نفاذ الأمر الإلهي، خاصة فيما يتعلق بإيقاع الساعة أو العذاب، فهو كنظرة سريعة بالعين.
- **ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر؟**: تذكير أخير بإهلاك أمثالهم في التكذيب، مع تجديد السؤال المحوري للسورة.
- **وكل شيء فعلوه في الزبر، وكل صغير وكبير مستطر**: تأكيد على الإحصاء الدقيق لكل أعمالهم، كبيرها وصغيرها، وأنها مكتوبة ومسطورة في سجلات محفوظة (الزبر).
- **إن المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر**: وصف لمآل المتقين في جنات وأنهار جارية، في مجلس حق كريم عند الله الملك المقتدر، والمليك صيغة صفة مشبّهة تدلّ على أنّ الملك صفة فيه لا له فقط، وهو ختام يبرز حسن عاقبة الإيمان والتقوى في مقابل سوء عاقبة التكذيب.

مقالة السورة (القمر)

لقد دنت الساعة واقترب أوانها، وانكشف أمرها ووضح غاية الوضوح كالقمر المنشقّ البازغ! ورغم هذا البيان، فإن هؤلاء المكذبين يعزون كلّ آية للسحر الذي يعرفونه.

لقد كان ديدنهم التكذيب واتباع الأهواء، غافلين عن أن لكل أمر نهاية يستقرّ عندها. ولقد جاءهم من أخبار هلاك الأمم السابقة ما فيه رادعٌ كافٍ وزاجر، جاءتهم حكمةٌ إلهية بالغة، ولكن ما فائدة النُذر لمن صمّم على الإعراض؟!

فأعرض عنهم يا محمد مؤقتًا، واتركهم حتى ذلك اليوم الذي يدعو فيه الداعي لأمرٍ فظيعٍ ينكرونه، يوم يخرج الناس من قبورهم خاشعة أبصارهم من الذلّ، منتشرين في الساحات كالجراد، مسرعين بأعناق ممدودة نحو الداعي، ليقول الكافرون حينها في يأسٍ: هذا يوم عسير!

إن هذا التكذيب ليس بجديد؛ فلقد كذّبت قبلهم قوم نوح، فكذّبوا عبدنا ونعتوه بالجنون وزجروه بعنف. فلمّا استنفد صبره دعا ربه مستغيثًا: إني ظهرت هزيمتي الحتميّة إذا بقي الأمر كما هو، فانتصر لي. فاستجبنا له وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجّرنا الأرض ينابيع، حتى التقى الماء على أمرٍ قدّرناه وهو هلاكهم. وحملنا نوحًا ومن معه على سفينة بسيطة من ألواح ودسر، تجري بحفظنا ورعايتنا، جزاءً لرسولنا الذي كُذّب وكُفر به. ولقد أبقينا قصتهم عبرة للأجيال، فهل من أحدٍ يعتبر ويتذكر؟ **{فكيف كان عذابي ونذر}؟ ولقد يسّرنا فهم هذا القرآن وحفظه وتذكره، فهل من متّعظ به؟**

وكذّبت عاد رســـولها فانظروا **{فكيف كان عذابي ونذر}؟** أرسلنا عليهم ريحًا عاتية في يوم شؤم عليهم مستمر، كانت تقتلعهم بقوتها كأنهم أصول نخلٍ بالية مقلوعة! **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر؟**

وكذّبت ثمود بكل النذر، واستكبروا قائلين: أترسل بشرًا واحدًا منّا نتّبعه، وهل هو هذا الذي أرسلته! إنّه كذّاب أشر، فجاءهم الردّ: {سيعلمون غدًا من الكذاب الأشر}! ثم أرسلنا الناقة آية واضحةً لهم تثبت صدق النبوّة، وأمرنا صالحًا بانتظارهم والصبر، وأن يخبرهم بتقسيم الماء بينهم وبينها. لكنهم استدعوا أشقاهم، فتمادى في غيّه وعقر الناقة. **{فكيف كان عذابي ونذر}؟** أرسلنا عليهم صيحة واحدة أهلكتهم، فصاروا كحطام النبات اليابس في الحظائر! **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر؟**

وكذّب قوم لوط بما أنذرناهم به، فكيف كان عذابي ونذر؟ أرسلنا عليهم حجارة من السماء، إلا آل لوط نجيناهم وقت السحر، نعمةً من عندنا، هكذا نكافئ من شكر. ولقد أنذرهم لوط ببطشتنا، لكنهم كذبوا وشكّكوا. بل لقد أرادوا ضيوفه للفاحشة، فطمسنا أبصارهم عقابًا، وقيل لهم: فذوقوا عذابي ونذري! ثم أخذهم في الصباح عذابٌ مستقرّ دائم. **فذوقوا عذابي ونذر! ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر؟**

ولقد جاء إنذارنا قومَ فرعون وجنده، فكذبوا بآياتنا كلها، فأخذناهم بعذابنا أخذ عزيز مقتدر.

والآن، أيها المكذبون من قريش، أفكّاركم خيرٌ من أولئك الأمم المهلكة؟ أم لديكم حصانة وعهد بالأمان مسطور في الكتب؟ أم تظنون أن جمعكم وقوتكم ستنصركم؟ {سيهزم الجمع ويولّون الدبر}! هذه هزيمتهم في الدنيا، {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر}! إن المجرمين يومئذٍ لفي حيرة وعذاب شديد، يوم يُجَرّون في النار على وجوههم ويُقال لهم: ذوقوا العذاب الذي يداخلكم من الجحيم!

تذكروا أنّا خلقنا كل شيء بمقدار دقيق وحكمة بالغة، وما أمر قيامة الساعة إلا كنظرة سريعة بالعين. ولقد أهلكنا أمثالكم في التكذيب قبلكم، **فهل من مدّكر؟** وكل عمل عملوه مُحصى في السجلات، وكل أمر صغير أو كبير مكتوب ومسطور.

أما من اتقى الله، فهم في بساتين وأنهار جارية، في مجلس حق كريم عند ربهم الملك الجدير بالملك المقتدر.

المعنى الشمولي (القمر)

تأتي سورة القمر كإنذارٍ كونيّ وتاريخيّ صارخ، تركّز على حقيقة واحدة هي اقتراب الساعة وحتمية عذاب المكذبين بها، مستخدمةً بنية خطابية فريدة تعتمد على

التكرار البلاغي لترسيخ الرسالة. ففي مواجهة إعراض قريش المستمر وتكذيبهم بالآيات الواضحة واتهامها بالسحر اتباعًا لأهوائهم، تقدّم السورة سلسلة من قصص الأمم البائدة (نوح، عاد، ثمود، لوط، آل فرعون) كأمثلة دامغة على مصير التكذيب، معقّبةً على كل قصة باللازمة المدوّية: "فكيف كان عذابي ونذر"، لتؤكد على جدية الإنذار وشدة العقاب الذي لا مفر منه.

وفي المقابل، وبشكل متوازٍ، تضع السورة أمامهم ومع كل عبرة تاريخية، الحجة النهائية والبديل الكافي للتذكر: "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر"؟ فإذا كانت النذر التاريخية لم تغنِ، فإن هذا القرآن هو الذكرى الميسرة الباقية، التي لا عذر لأحد في الإعراض عنها. هذا التكرار المزدوج يشكل قصفًا بلاغيًّا يهدف إلى هزّ القلوب الغافلة، مؤكّدًا أن المشكلة ليست في صعوبة التذكرة، بل في غياب إرادة التذكر نفسها، ويختم بتحدٍ مباشر لكفار مكة بأنهم ليسوا أفضل من سابقيهم، وأن جمعهم سيُهزم، وأن موعدهم الحقيقي هو الساعة الأدهى والأمر، ليُقابل ذلك بمصير المتقين عند ربهم المقتدر.

إنّ سور القرآن تجري على أنماط وأطوال مختلفة، منها القصير والطويل ومتوسّط الطول، وحتّى الآن لم نأت على سور طويلة، إذ إنّ القرآن في بدايته كانت سوره قصيرة أو متوسّطة الطول، ونحن على مشارف سور ص وهي سورة طويلة مع أنّها ليست من المطوّلات كالبقرة مثلا. أمّا الأنماط فرأينا سورًا تعمد إلى تكرار آية لازمة تتكرّر بين كلّ قصّة وقصّة من قصص الأمم السابقة، ورأينا سورًا فيها خيط واضح ينتظم الآيات، وأخرى نحتاج أن نعمل العقل لإبصار العلاقة بين آياتها.

وسنرى في المقبل من السور ما فيه تداخل بين القصص، لأنّ القصّة في القرآن غالبًا ما تأتي بموعظة تصيب مكانها في نفس القارئ أو السامع من ذلك الزمان، فيكون محور القصص هو عبرها، فإذا كثرت العبر المتجانسة في قصص مختلفة جاء الترتيب أحيانا على مدار العبرة لا على ترتيب القصّة كما حدثت في الزمن الغابر.

ولهذا فإنّنا سنرتّب العبر والمقولات حسب ورودها في السورة أوّلًا، ثم ندلف إلى كلّ قصّة شارحين العبرة فيها، لافتين النظر إلى دلالة القصّة بلاغيًّا، دون الدخول إلى الأحداث الدقيقة، فهي لم تكن مقصد السورة من الأصل، أو حتّى مقصد الآيات التي تذكر هذا الجزء أو ذلك من القصة

التي توردها، فهنا إقرار منّا بأنّ المعنى الدقيق لبعض الكلمات غائب عنّا فهو غيب أو كالغيب، لكنّ هذا لا يضرّ بعبرة القصّة.

أمّا ما يضرّ بعبرة القصّة فهو وضعها في سياق واستنتاج أمور منها لم تكن لتستنتج لولا السياق المحيط بها، فالحقيقة أنّ من يضع السياق يتحكّم بالعبرة المستخلصة، وإن تناقضت مع عبر أخرى مرّت في السورة أو مع روح الرسالة، مثل أنّ الله لا يؤاخذنا في اللغو في أيماننا لكنّ نسيان قول كلمة "إن شاء الله" عند التعبير عن نيّة يتسبّب في هلاك الزرع أو المخلوقات، وهذا ما رأيناه في سورة سابقة ذكرت قصّة أصحاب الجنّة التي عقدوا العزم على ألّا يتركوا منها شيئا من باب التسبيح لله للفقراء والمساكين، فوضع السياق هنا غايته التشويش على دلالة الآيات الصريحة التي فيها قرينة واضحة.

كذلك فإنّ منهج التداخل في القصص داخل القصّ القرآنيّ ترك أثرًا في القصّ الشعبيّ عند العرب، والأمم المجاورة لهم، فكانت القصص تتداخل، ولك أن ترى ذلك في القصص التي شاعت بين العرب ككتاب كليلة ودمنة، وحكايات ألف ليلة وليلة، وغير ذلك من قصص الأمثال، وطرق تصنيف العرب لأيّامهم وأخبار معاركهم. ولي رأي في ذلك، فأنا أعزوه لطغيان الشعر على أدب العرب، والشعر لا يعبأ بالترتيب الزمنيّ والمنطقيّ إلّا قليلًا، ثمّ جاء القرآن فكان النصّ العربيّ

المركزيّ، وهكذا فقد انتشر هذا النمط ليكون نمطًا عربيًّا يميّز العرب والأمم المتأثّرة بهم.

ولهذا كان الرأي أنّنا إذا وجدنا هذا النمط من الترتيب في الآيات، وضعنا مخطّطًا سرديًّا يرتّب الأحداث حسب العبرة أو المقولة التي تدور حولها الآيات، ثمّ أخذنا نقرأ الآيات التي على هذا المدار حتّى آخرها، وإن تنقّلت من قصّة لأخرى، وفي قراءتنا هذه نربط بين المعاني المختلفة ونشير باختصار إلى ما لا نعرف كنهه لاختلاف الرأي فيه، فإذا رجح لنا شيء ذكرناه، وإلّا فنحن نتمسّك بالقول المعلوم، ونكتفي به عن الشطط في التفسير، ونضرب صفحًا عن السياقات المتخيّلة المفترضة التي نقلها "المفسّرون"، ومنها قصص مليئة بالخرافات التي لا يقبلها عقل، لا سيّما ذلك العقل الذي لمس منطق القرآن وفهم بنيته الخطابيّة.

وخلال كل ذلك نتّبع طريقتنا في فهم الكلمات العربية بقدرها، ولا نبتعد عن المعاني اللغوية والصوتية، فليس لنا علم الغيب ولا ندّعي أنّنا نعرف القصص التي كانت قريش وغيرها من القبائل تتداولها عن الأمم السابقة، وما لدينا ممّا نقله المفسّرون، فهي قصص لا يستحيل أن تكون مختلقة. كذا، فإنّنا سنراعي ذكر بعض من آراء السابقين عند اللزوم، ذكرًا يقصد منه لفت انتباه القارئ إلى حجم الافتراضات المتراكمة التي يبنى عليها فهم نراه فاسدًا.

مقالات القرآن العظيم 34 | سورة ص

تأتي سورة "ص" (الثامنة والثلاثون في ترتيب النزول التقريبي) بعد سورة القمر التي ركزت على الإنذار باقتراب الساعة وتكذيب الآيات وأنّ القرآن آية كافية لمن أراد التصديق. تدخل بنا هذه السورة الأطول نسبيًا إلى قلب الجدال المحتدم في مكة، لتواجه بشكل مباشر حالة العناد والاستكبار {عزة وشقاق} التي منعت سادة قريش من قبول دعوة التوحيد، وتفند شبهاتهم واتهاماتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، لا سيّما طلبهم بتعجيل العذاب.

وعند قراءة السورة بتعمّق يظهر أنّ مسألة طلب تعجيل العذاب أثّرت في النبيّ تأثيرًا كبيرًا، فرغم أنّها ترد في آية واحدة لا تتكرّر، فهي محور السورة التي تتصل خيوطها المتشابكة إليه.

تتميز السورة ببنيتها المتشابكة، حيث تتداخل فيها مقاطع الحجاج مع المشركين، مع قصص مفصلة لأنبياء سابقين (خاصّة داود وسليمان وأيوب: الذين تذكر حولهم أحداث معيّنة، ويذكر طيف واسع من الأنبياء وأقوامهم ذكرا دون تفصيل)، ليستخلص منها القرآن العبر والمواعظ التي تخدم السياق، وتقدم العزاء والتثبيت للنبي، وتبرز نموذجي الصبر والعودة إلى الله {أواب} في مقابل الكبر والإعراض. كما تعرض السورة لمصارع الغابرين، وتفصل في

المقارنة بين مآل المتقين ومآل الطاغين، وتختتم بقصة الخلق الأولى وجدال الملأ الأعلى وعصيان "إبليس"، لترجع أصل الكفر والشقاق إلى الاستكبار والحسد، مؤكدةً أن القرآن ذكر للعالمين سيظهر صدقه في حينه.

إضاءات لغوية

- **ص والقرآن ذي الذكر**: البدء بالحرف المقطّع (ص)، وهذه الأحرف تذكر في سياق الكتابة "نون" والقرآن والذكر، فتسبق القسم، وهي تستحقّ وقفة مستقلّة سنأتي إليها قريبًا، يليه القسم بالقرآن المتصف بكونه مصدرًا للذكرى والشرف والرفعة. القسم غير ظاهر الجواب أسلوب رأيناه من قبل وسنقف عليه مع الحروف المقطّعة.
- **بل الذين كفروا في عزة وشقاق**: (بل) للإضراب والانتقال لبيان حال الكفار الحقيقي. {عزة} أي استكبار وأنفة تمنعهم من قبول الحق. {شقاق} أي خلاف ومنازعة ومعاندة بعيدة عن الحق. هذا هو الدافع الحقيقي لتكذيبهم.
- **كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص**: (كم) للتكثير. {قرن} أي جيل أو أمة. {فنادوا} استغاثوا عند نزول العذاب. {ولات حين مناص} أي بعد عنهم حينئذ الفرار والنجاة. تركيب بليغ يصور فوات الأوان.

- **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب:** بيان لسبب آخر لتكذيبهم وهو التعجب الاستكباري من أن يكون النذير بشرًا منهم، واتهامهم المباشر له بالسحر والكذب.
- **أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب:** الاستفهام للإنكار والاستغراب الشديد منهم لدعوة التوحيد. {عجاب} صيغة مبالغة من العجب، أي أمر خارق للعادة ومستغرب جدًا في نظرهم.
- **وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد:** تصوير لموقف كبراء قريش وتحريضهم لأتباعهم على الثبات على الشرك، مع اتهام ضمني للرسول بأن دعوته مؤامرة مقصودة {شيء يراد} كما قال بعض المفسّرين، وقد يكون الشيء الذي يُراد في رأيهم هو صبرهم على آلهتهم، وهذا هو الرأي الذي أراه.
- **ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق:** حجتهم قائمة على التقليد الأعمى ({الملة الآخرة} أي دين آبائهم القريب)، واتهام صريح للقرآن بأنه كذب مُختلق.
- **أؤنزل عليه الذكر من بيننا، بل هم في شك من ذكري، بل لما يذوقوا عذابي:** استفهام إنكاري آخر يكشف عن

حسدهم واستبعادهم لاصطفاء النبي بالوحي. الرد الإلهي ينتقل من بيان حقيقتهم (الشـــك في أصـــل الذكر) إلى التهديد بأنهم لم يجربوا العذاب بعد. لمّا في {لمّا يذوقوا} تفيد أنهم سيذوقونه حتمًا.

- **أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب؟ أم لهم ملك الســـماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب؟**: أسئلة إنكارية تهكمية تفضح ادعاءهم: هل يملكون خزائن رحمة الله ليتحكموا فيمن يرســـل؟ والرحمة مفهوم أوسع من العطف كما أسلفنا في شرح اسم الله الرحمن، يمكن تقريبه بأنّه الوسع، هل يملكون الكون؟ إن كان كذلك، فليصـــعدوا ويتحكموا في أمره، {الأســـباب} هنا قد تعني الحبال أو الطرق أو أبواب السماء.

- **جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب**: أي هم {جند ما}، وهذه صـــيغة للتحقير، أي إنّ هؤلاء مجرد جند قليل لا شـــأن له. {هنالك} إشـــارة للزمان الآتي. {مهزوم} خبر يفيد حتمية الهزيمة. {من الأحزاب} أي هم جزء من الأمم المكذبة التي تحزبت ضـــد الرســـل وســـتلقى مصيرهم. بشارة بهزيمتهم.

- **كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب**: تعداد للأمم

المكذبة السابقة التي شكلت أحزابًا ضد الحق. {ذو الأوتاد} وصف لفرعون يدل على القوة والثبات أو شدة التعذيب، ولا تدلّ بالضرورة على الأهرامات التي هي كالجبال الأوتاد. {أصحاب الأيكة} قوم شعيب، والأيكة هي شجرة عظيمة ملتفة الأيك "الأغصان" قيل إنّهم كانوا يعبدونها.

- **إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب**: (إنْ) نافية بمعنى "ما"، أي ما من أمة من هؤلاء إلّا وكذبت رسلها، فكانت النتيجة الحتمية هي نزول عقابي المستحق عليهم.

- **وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق**: {ما ينظر} أي ما ينتظر كفار مكة. {صيحة واحدة} أي صيحة العذاب أو النفخ في الصور. {ما لها من فواق} أي لا توقف لها ولا رجوع ولا مهلة، كوقت ما بين حلبتي الناقة (الفواق).

- **وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب**: قولهم استهزاءً واستعجالًا للعذاب. {قِطّنا} أي نصيبنا وحظّنا من العذاب الموعود.

- **اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب**: أمر للنبي بالصبر على هذا القول، ثم تأتي القصص تباعًا لتثبّت قبله على هذا الصبر المطلوب على هذه المقولة، وتوجيهه لذكر داود كنموذج للقوة {ذا

الأيد} والرجوع الدائم إلى الله {أواب}. وسيأتي ذكر الأنبياء تباعًا بقصد التعزية والتثبيت والقدوة.

- **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كلّ له أواب**: بيان لعظمة ملك داود، الذي لم يحمه من اختبارات الله الصعبة له، تسخير الجبال والطير مع داود تشاركه التسبيح، والتسبيح كما أسلفنا أوسع من مجرد ترديد السبحلة "سبحان الله"، فهي حركة الأشياء في الكون تسمو نحو مفهوم الله، وأن الطير كانت ترجع إليه {كلّ له أوّاب}.

- **وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب**: بيان لتمام النعمة على داود: قوة الملك، والحكمة، والقدرة على القضاء الواضح الفاصل، وهذا أفضل ما يمكن أن يطمح له نبيّ، ورغم ذلك سيحدث ما يأتي من قصّة.

- **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب...**: بداية قصة اختبار داود، وصيغة الاستفهام {وهل أتاك} للتشويق وللتأكيد على أن هذا الخبر من علم الغيب الذي يوحى للنبي. {تسوروا المحراب} أي تسلقوا سور مكان عبادته ودخلوا عليه فجأة، رغم ملكه وهذا سبب توجّسه منهما. وهنا علينا أن نلاحظ أنّ الخصم مفرد، ثم "تسوّروا المحراب" مجموعة، وبعدها يأتي أنهما "خصمان"، وهكذا نعلم أنّهم مجموعة من الناس لا أخوين اختلفا

فقط، لكنّ هـذه المجموعـة منقســمـة إلى جهتين متخاصمتين.

- **خصـمان بغى بعضـنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط:** طلب الخصمين للحكم العادل دون جور {لا تشطط} والهداية للطريق المستقيم.
- **إن هذا أخي له تسـع وتسـعون نعجة... فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب:** عرض القضية التي ظاهرها بسيط (طلب الشريك ضم النعجة الوحيدة لأخيه) ولكنها تحمل رمزية للاختبار. {أكفلنيها} اجعلني كافلها. {عزني في الخطاب} غلبني بحجته وقوة كلامه.
- **قال لقد ظلمك بسـؤال نعجتك... وإن كثيرًا من الخلطاء ليبغي بعضـهم على بعض إلا الـذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم:** حكم داود السريع الذي أدان فيه المدعى عليه، ولاحظ أنّ القرآن لا يذكر أنّه سـمع من الطرف الثـاني، ثم اسـتطرد بحكمـة عـامّـة عن بغي الشركاء إلا القلة المؤمنة الصالحة.
- **وظن داود أنما فتناه فاسـتغفر ربه وخر راكعًا وأناب:** {ظن} هنـا بمعنى أيقن وأدرك. أدرك داود أن الموقف كان اختبارًا لـه {فتنـاه}، ربمـا في التسـرع بـالحكم قبل سـماع الطرف الآخر أو في وجود ميل خفي في نفسـه، فبادر بالاستغفار والسجود والتوبة {أناب}.

- **فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب**: بيان قبول التوبة والمغفرة، وتأكيد مكانة داود عند الله وقربه منه وحسن عاقبته.

- **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**: توجيه مباشر لداود بعد الاختبار، يؤكد مسؤوليته كخليفة في إقامة العدل، ويحذره من اتباع الهوى (وهذا تحذير ضمنيّ شديد التهذيب للنبيّ بأن لا يتّبع هواه)، ويربط بين اتباع الهوى والضلال عن سبيل الله ونسيان يوم الحساب والعذاب الشديد. للتأكيد: هذا توجيه للنبي ولكل حاكم.

- **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظن الذين كفروا**: تأكيد على أن الخلق له حكمة وغاية وليس عبثًا، وأن الظن بغير ذلك هو سبيل الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، فإذا كانت الحكمة حاضرة في سبب الخلق فمن الحريّ بها أن تستمرّ في شأن الخلق كلّه، ولذلك لا يجوز التسرّع أو القفز إلى النتائج دون بذل الوسع كلّه.

- **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار**: استفهامات إنكارية تؤكد على عدل الله واستحالة المساواة بين المؤمن

والمفسد، والمتقي والفاجر، مما يقتضي وجود يوم للحساب والجزاء.

- **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب:** بيان أنّ العهد "الكتاب" الذي سبق ذكره في الآيات السابقة هو منزل من عند الله، وأنّ الغاية من إنزال القرآن كلّه الذي يحوي هذا العهد بهذا النوع من الحكم هو: كتاب مبارك، أُنزِل للتدبر والتفكر في آياته، وللتذكر والاتعاظ لأصحاب العقول السليمة.

- **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب:** العودة لذكر النعم على داود بوهب ابنه سليمان، مع الثناء على سليمان وتأكيد صفة {أواب} فيه أيضًا.

- **إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب:** قصة اختبار سليمان. {الصافنات الجياد} الخيل الأصيلة السريعة التي تقف على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة. {أحببت حب الخير} أي آثرت حب الملك والانهماك به. أحببته {عن ذكر ربي} أي غفلةً عن موعظة الله لي بأنّ كلّ ملك زائل، وأنّ وظيفة الحاكم هي الرعيّة لا الفرح بما يملك. {حتى توارت بالحجاب} أي حتى غابت خيله عنه. وهنا يروي المفسّرون قصّة غير مفهومة عندي عن أنّ سليمان نسي صلاة العصر

بسـبب تأمّله خيله حتى غابت الشـمس فندم فقتلها، وهذا ممّا يتعارض مع زمن العشـــيّ وأنّه يطلب أن تردّ إليه الخيل في الآية التي تليها.

- **ردوها عليّ فطفق مســـحًا بالســـوق والأعناق**: أمره بإعادة الخيل، ثمّ أخذ يمسـح سـوقها وأعناقها بيديه لحبّه الشـديد لها، ويبدو أنّ ذلك كناية عن مشـهد توديعه لها، فقد أراد مفارقتها. وهنا يقول المفسّـرون أن المسـح هذا هو القتل، ولا أرى في اللغة وجاهة لقولهم هذا، ولكن إن كانت القصّة حقًّا ما يقولون بأنّه قتلها، فمشهد المسح هنا هو مشهد توديع.

- **ولقد فتنّا سـليمان وألقينا على كرسـيه جسـدًا ثم أناب**: ذكر لاختبار آخر لسليمان، حيث أُلقي على كرسيه جسد والجسـد في لغة العرب هو الصـبغ الأحمر، الذي يظنّ بـأنّـه دم، فيبدو من الآيـة دون الاتّكـاء على القصـــص العجيبة التي يرويها المفسّرون أنّه وجد دمًا على فراشه (والكرسـيّ الفراش أيضًا)، فأحسّ بقرب أجله وأنّ الملك لله فأناب له. والقصـــة المذكورة عجيبة جدًّا لا قبل لنا بذكرها، لكن المهم أنه بعد هذا الابتلاء عاد إلى الله تائبًا {أناب}.

- **قال رب اغفر لي وهب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب**: دعاء سليمان بعد توبته، يطلب المغفرة

وملكًا فريدًا خارقًا للعادة، معترفًا بأن الله هو مصـــدر الهبات.

- **فســـخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصـــاب، والشـــياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصـفاد**: استجابة الدعاء بتسخير الريح اللينة {رخاء} في كلّ مكان يحلّ به، والشـــياطين: والشـــيطان هو كلّ بعيد شـــاطن في أمره، فالســـريع عند العرب شـــيطان، والأفعى الســـريعة شـيطان، وخيال الشـــاعر وشـطحته شـــيطان، (كلّ بنّاء وغوّاص) أي أنّ هؤلاء المهرة في أعمالهم (بعيدو المأخذ فيها) منهم البناؤون والغواصون، ومنهم المتمرّدون المقيّدون بالسلاسل {الأصفاد}.
- **هذا عطاؤنا فامنن أو أمســك بغير حســاب**: بيان لتمام العطاء والتفويض لســـليمان بالتصـــرف في ملكه دون مســـاءلة لكمال ثقة الله فيه بعد توبته. {امنن} أعطِ. {أمســك} امنع. أليس هذا هو المقصـــد من قصـــة الفتنة بالملك وتذكر الموت برؤية الدم؟ إنّ الأمر غدا مفهومًا جدًّا دون شطط في التفسير ودون إسرائيليّات.
- **وإن له عندنا لزلفى وحســن مآب**: تأكيد مكانة ســليمان عند الله كما ذكر لداود.
- **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مســني الشـــيطان بنصــب وعذاب**: ذكر أيوب كنموذج للصــبر على البلاء

الشديد. {نُصب} تعب ومشقة. ومع نسبة هذا النصب إلى مسّ الشيطان بمعنى الشيطان كما شرحناه (كلّ بعيد المأخذ شاطن فيه) قد تكون بمعنى مرض متسارع أو سوى ذلك، فالمسّ المداخلة، ومن المفهوم أن يكون المقصود مرضًا لا جنّيًّا، والمرض هو ما أبعد أهله عنه، كما يظهر في قرينة لاحقة في النص.

- **اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب**: الأمر الإلهي بالاستشفاء عن طريق الركض أو ضرب الأرض برجله، ليخرج منها ماء بارد للاغتسال والشرب.

- **ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب**: تعويض أيوب عن فقده برجوعهم إليه وبانضمام آخرين له مماثلين لأهله في الصلاح والمودّة، رحمة من الله وعبرة لأصحاب العقول.

- **وخذ بيدك ضغثًا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرًا نعم العبد إنه أواب**: هذه تتمّة لأمره بالاستشفاء، تأخّر ذكرها لتأخّر زمنها، لأنّها جرت بعد ردّ أهله إليه بزيادة القوم الذين صحبوهم (مثلهم معهم)، أمّا معنى هذه التتمّة، فهي أن يأخذ نوعًا من الأعشاب تتصف بكونها (ضغثًا) أي شديدة التفرّع عن أصل واحد، ويضرب به أي يخلطه ويغليه إلى أن يضرب ماؤه أي يصبح كثيفًا، وهنا تكون التتمّة الادّهان به أو شربه أو سوى ذلك من

سبيل للاستشفاء أوحى الله له بها. ثم يأتي النهي عن الحنث، والحنث ليس ما فهمه المفسّرون، بل هو الانعزال وهو معنًى معروف للحنث، فالله هنا يعفيه من الانعزال عن أهله بسبب مرضه. وهذا ظاهر النصّ والله أعلم.

- **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار**: ذكر آباء الأنبياء كقدوات أصحاب قوة في الطاعة {الأيدي} وبصيرة {الأبصار}.
- **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار**: نقيّناهم بهبة وهي صفة خالصة، وهذه هي تذكرهم الدائم للدار الآخرة والعمل لها.
- **وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**: بيان مكانتهم العالية عند الله.
- **واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار**: ذكر أنبياء آخرين للتأسي بهم.
- **هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب**: {هذا ذكر} أي ما سبق من قصص هو للتذكير والشرف، ثم بيان جزاء المتقين.

- **جنات عدن مفتحة لهم الأبواب**: بيان حسن المآب المذكور، وهو وصف للجنة بأنها جنات إقامة دائمة مفتوحة الأبواب تكريمًا لهم.
- **وعندهم قاصرات الطرف أتراب**: وصف لنساء المتّقين في الجنّة بأنهن لا ينظرن لغير أزواجهن، وهنّ متساويات في السن والجمال.
- **هذا ما توعدون ليوم الحساب إن هذا لرزقنا ما له من نفاد**: تأكيد على أن هذا النعيم هو الوعد الحق ليوم الحساب، وأنه عطاء دائم لا ينتهي.
- **هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد**: في المقابل، بيان مصير الطاغين السيء وهو جهنم التي يدخلونها ويقاسون حرها، وهي أسوأ فراش ومستقر، أو تكون "فبئس المهاد" بمعنى بئس سعيهم الذي مهّد لهم عذابهم هذا.
- **هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج**: بيان أنواع العذاب: الماء الحار {حميم} والصديد البارد المنتن {غساق}، وأنواع أخرى مشابهة {وآخر من شكله أزواج} أي ما له صفات متزاوجة من شراب من شاكلة الحميم والغسّاق.

- **هذا فوج مقتحم معكم، لا مرحبًا بهم؛ إنهم صالوا النار:** حوار أهل النار. يقول القادة عن أتباعهم: هذا جمع داخل النار معكم أو بعدكم يكونون معكم فيها. يرد بعضهم على بعض: لا أهلًا بهم، إنهم سيدخلون النار ويقاسون حرها.
- **قالوا بل أنتم لا مرحبًا بكم، أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار:** رد الأتباع على القادة: بل أنتم لا مرحبًا بكم، أنتم من أضلنا وقدم لنا هذا العذاب، فبئس هذا المستقر.
- **قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابًا ضعفًا في النار:** دعاء الأتباع على القادة الذين سبقوا إلى المعصية فزيّنوها للناس بمضاعفة العذاب.
- **وقالوا ما لنا لا نرى رجالًا كنا نعدهم من الأشرار أتّخذناهم سِخريًا أم زاغت عنهم الأبصار:** تساؤل أهل النار عن عدم رؤيتهم لأناس كانوا يسخرون منهم في الدنيا ويعدونهم أشرارًا، هل كنا نسخر منهم خطأً أم أن أبصارنا لا تراهم لعلّة فيها. وربّما المقصود هنا أنّهم لا يرون المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم.
- **إن ذلك لحق تخاصم أهل النار:** تأكيد على أن هذا الجدال والخصام بين أهل النار حقيقة واقعة لا محالة.

- **قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار...**: عودة لخطاب النبي وتحديد مهمته (الإنذار) وتأكيد التوحيد وصفات الله.
- **قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون**: وصف للقرآن أو للرسالة كلها بأنها خبر عظيم، وتوبيخ لهم على إعراضهم.
- **ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون**: نفي النبي لعلمه بغيب السماوات وحوار الملائكة القادم ذكره لولا الوحي، دليل على صدقه.
- **إن يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين**: حصر مهمته في الإنذار الواضح بناءً على الوحي.
- **إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين...**: بداية حوار الله مع من يملك أمرهم، وقصة خلق الله للإنسان، أي حوار الله مع "الملائكة" حول خلق آدم.
- **فإذا سويّته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**: الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم بعد تمام خلقه ونفخ الروح فيه، والسجود هنا المطاوعة، فملائكة الله (ما يملكه) تكون مسخّرة للإنسان.
- **إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين**: استثناء إبليس وسبب عصيانه: الاستكبار ومحاولة الطغيان على أمر

الله. وإبليس إمّا أن يكون اسمًا أعجميًّا بمعنى المفسد، أو أن يكون عربيًّا بمعنى من ينقطع فيه الرجاء، أي الميؤوس منه. وهنا أشكل على المفسّرين أن يكون الكلام عن الملائكة (عباد الله الذين لا يعصونه)، ويضمّ (إبليس) الذي عصاه فهو خارج الملائكة بالضرورة، وهنا علينا أن نرى أنّ الله يملك كل أمر، ولذلك فكلّ ما في الكون ملائكته، لكنّ بعض خلقه استكبر على أن يطيعه بانقياد كما تفعل الملائكة، وقد كان يمكنه أن يخرجه من ملكه إلى العدم، ولنتذكّر أن كلمة رحمة تعني الوسع والقدرة أصلا لا الرأفة فقط، لكنّه يقبل أن ينظره إلى يوم معلوم حتّى يختبر الناس به، وأساس الاختبار هنا هو أساس معصية إبليس وهي الاستكبار. وقد قيل: إنّ الكبر أبو الخطايا.

- **قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت أم كنت من العالين:** سؤال الله لإبليس عن سبب عصيانه، مع تشريف آدم بـ{خلقت بيديّ}، وتحديد سبب العصيان بين الاستكبار أي أن يرى نفسه كبيرًا، أو كونه عاليًا عن طاعة أمر الله بالفعل، وهذا سؤال استنكاريّ، لا استفهاميّ، وهو لبيان حقيقة الاستكبار.

- **قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**: حجة إبليس الواهية القائمة على العنصـــر، والكبر، ومقارنة الأصل المادي.

- **قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين**: طرد إبليس من الرحمة واللعنة عليه إلى يوم الدين، ويوم الدين هنا يجب أن يفهم على أنّه الطور أو المرحلة التي يجازي الله بها، ويبســـط نظامه فيها. والرجيم هو المبالغ في الرجم، وهو ســـبب اللعنة لا جزاؤها، والرجم هو التخرّص والظنّ غير المبنيّ على أســـاس حقيقيّ، والجزاء هو اللعنة إلى يوم الدين أي مرحلة بسـط النظام الإلهيّ الخالص الذي لا إرادة فاعلة فيه غير إرادته.

- **قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم**: هنا يطلب إبليس بإقرار بأنّ الله ربّه (راعيه) أن يرقب فعله حتّى يوم بعث الناس (النظرة هي المهلة أو الفرصـــة)، وقبول الله أن يمهله إلى "يوم الوقت المعلوم"، وهذا قد يكون يوم القيامة أو يومًا قبل القيامة بقليل، أو يوم بعثة محمّد، أو أي ميقات ضربه الله له، وسكت عن بيانه.

- **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصـــين**: قســـم إبليس بعزة الله على إغواء البشـــر

أجمعين، والإغواء بذاته هنا فيه معنى تزيين الاستكبار، وبعد ذلك يأتي استثناء عباد الله المخلَصين، فمن لا يغويه أو يجعله يستكبر على الله كان من عباد الله المخلصين فعلا.

- **قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين**: فالحقّ أنّني سأفعل ذلك، وأنا لا أقول إلّا الحقّ، أي قولي ثابت واقع: لتكونّن في جهنّم أنت ومن تبعك وسار على خطاك في الاستكبار عليّ وعلى أمري.
- **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين**: عودة لخطاب النبي للناس، يؤكد أنه لا يطلب أجرًا على رسالته، وأنه ليس متصنعًا أو مدعيًا.
- **إن هو إلا ذكر للعالمين**: تأكيد أن القرآن رسالة عالمية للتذكير.
- **ولتعلمن نبأه بعد حين**: وعد ووعيد بأن حقيقة هذا القرآن وأخباره ستتضح وتتحقق بعد زمن، وستظهر دلالة هذا القول على حقيقته التي يعلمها الله ولا يعلمها السامع، وإن كان مفهومًا له الآن، ويكون ذلك إما بنصر المؤمنين وهزيمة الكافرين في الدنيا، أو عند الموت، أو يوم القيامة.

مقالة السورة (ص)

يقسم الله تعالى بالقرآن ذي الذكر والشرف، ليواجه مباشرةً حقيقة المشـــركين المكذبين المنغمســـين في كبرياء مانع {عزة} وخلافٍ مع الحق {شـــقاق}. ويذكرهم بأن الأجيال السابقة التي أُهلكت لم تجد مهربًا {ولات حين مناص} حين استنجدت وقت العذاب. وتكشف السورة دوافعهم: إنهم لم يكذبوا لغياب الحجة، بل استكبروا وتعجبوا أن يأتيهم نذير من البشـــر، واتهموه بالســـحر والكذب، واســـتغربوا أشـــد الاســـتغراب دعوة التوحيد {أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب}! وانطلق كبراؤهم يحثون قومهم على الثبات على آلهتهم، زاعمين أن هذا الثبات هو الأمر المطلوب والمراد، ومحتجين بأنهم لم يســـمعوا بهذا في دين آبائهم القريب وأن ما جاء به النبي مجرد اختلاق.

ويعود القرآن ليكشف حقيقة موقفهم؛ فهم لا يشكّون فقط، بل يتســـاءلون بحســـد: {أؤنزل عليه الذكر من بيننا}؟ ويرد الله بأنهم في شك عميق من أصل الذكر، وأن سبب عنادهم هو أنهم {لما يذوقوا عذابي} أي أنّهم لم يطهّرهم عذابي من كبرهم، فهم يعيشـــون في نعيم لا يرون معه إلّا أنّهم مستحقّون له فهم يستكبرون. ثم يتحدّاهم تهكمًا: هل يملكون خزائن رحمة الله الواسعة ليتحكموا بمن يرسل؟ أم هل لهم

ملك السماوات والأرض ليصعدوا ويقرروا؟ ويحقر من شأن جمعهم هذا مؤكدًا أنه مجرد {جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب}، مذكّرًا بمصير أحزاب الكفر قبلهم (قوم نوح، عاد، فرعون، ثمود، قوم لوط، أصحاب الأيكة)، الذين كذبوا رسلهم فحق عليهم عقاب الله. ويخبر بأن هؤلاء المكذبين المعاصرين لا ينتظرون إلا صيحة العذاب الفاصلة التي لا مهلة فيها، ومع ذلك، وبسبب هذا الشك والكبر، بلغ بهم الاستهزاء أن قالوا: {ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب} أي أعطنا العذاب الآن ولا تنتظر إلى يوم الحساب الذي تتوعّدنا به: أرنا قوّتك يا من ترى نفسك رسولا لله وعذّبنا بما تخوّفنا به.

هذا الطلب الساخر بتعجيل نصيبهم من العذاب كان له وقعه على نفس النبي، فيأتي التوجيه الإلهي المباشر له: {اصبر على ما يقولون}، ثم يأمره بأن يستحضر ويتذكر قصص عباد الله الأنبياء كنماذج للصبر والأوبة والتسليم في مواجهة الابتلاء، وليرى كيف أن النعم العظيمة كالملك والقوة لم تمنع عنهم اختبار الله.

تبدأ أمثلة السورة بذكر داود، صاحب القوة {ذا الأيد} والرجوع الدائم إلى الله {أواب}، الذي بلغ من مكانته أن الجبال والطير كانت تشاركه التسبيح وتعود إليه بأمر الله. ورغم أن الله شدّ ملكه وآتاه الحكمة والقدرة على القضاء

الفاصـــل، إلا أنـه تعرض لاختبـار دقيق. وتـأتي قصـــة "الخصم" (وهم جماعة منقسمة على نفسها) الذين تسوروا عليه المحراب ففزع منهم، ليحكم بينهم في قضـــية رمزية (صاحب الـــ99 نعجة يطمع في نعجة أخيه الوحيدة ويغلبه بقوة خطابه). حكم داود ســـريعًا لصـــالح صـــاحب النعجة الواحدة مســـتنكرًا بغي الشـــركاء {وإن كثيرًا من الخلطاء ليبغي بعضـــهم على بعض إلا...}، ولكنه أدرك بعدها أن الموقف برمته كان اختبارًا له {فتنّاه}، ربما في اســـتعجاله بالحكم قبل ســـماع الطرف الآخر، فبادر فورًا بالاســـتغفار والســـجود والتوبة {أناب}. فكانت نتيجة هذه الأوبة قبول المغفرة وتأكيد مكانته عند الله {لزلفى وحسن مآب}.

ثم جاءه التكليف والتحذير معًا: {يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى}، في ربط واضـــح بين خطر الهوى والضـــلال ونســـيان يوم الحساب الذي يطلبه أولئك المستهزئون. وتأتي آيات لتؤكد أن الخلق لـه حكمة وليس باطلًا كما يظن الكافرون، وأن عدل الله يقتضـــي التفريق بين المؤمن والمفســـد والمتقي والفاجر، وأن هذا القرآن كتاب مبارك أُنزل للتدبر والتذكر، وهذا تأكيد على أنّ هذه القصّـــة وغيرها مما سـيأتي توجيه للرسول.

ثم تواصل السورة ذكر النعم على داود بوهب ابنه سليمان، وتثني عليه أيضًا بأنه {نعم العبد إنه أواب}. وتستعرض جانبًا من اختباراته؛ فتنته بحب الملك وزينته من الخيل {الصافنات الجياد} حتى شغله ذلك عن ذكر ربه والتفكر في مآل الأمور، فلما أدرك ذلك، طلب أن تُردّ عليه خيله، وأخذ يمسح عليها مودعًا (لا قاتلًا كما شاع خطأً) في إشارة لزهده فيها بعد أن كادت تلهيه. ثم تشير إلى فتنة أخرى أشد {ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا}، ولعلها رؤيته لدمٍ على فراشه ذكّره بفنائه وقرب أجله، فكانت النتيجة الفورية {ثم أناب}. وبعد هذه الأوبة الصادقة، دعا ربه بالمغفرة وبملكٍ فريد {لا ينبغي لأحد من بعدي}، فاستجاب الله له استجابة مذهلة، وسخر له الريح تجري بأمره، وسخر له المهرة المبدعين في مجالاتهم ({الشياطين كل بناء وغواص}) والمتمردين المقيدين بالأصفاد، ومنحه عطاءً وتفويضًا مطلقًا {فامنن أو أمسك بغير حساب}، كل ذلك بعد أن ثبت في الاختبار وعاد إلى ربه تائبًا.

وتنتقل السورة إلى عبد آخر من الأوابين، وهو أيوب، مثال الصبر العظيم. تذكر نداءه لربه شاكيًا الضر الشديد الذي مسّه من مرض متسارع أليم {مسني الشيطان بنصب وعذاب} وأدى لعزلته. فجاءه الفرج الإلهي بأمر مباشر: {اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب}، فكان شفاؤه. ولم يقتصر الفضل على الشفاء، بل عوّضه الله عن أهله

ومن فقدهم بجمعهم إليه ومعهم مثلهم، رحمةً وذكرى لأولي الألباب. وحتى يكتمل شـــفاؤه وتعود له حياته الطبيعية، أرشده الله إلى علاج تكميلي {وخذ بيدك ضغثًا فاضرب به} (أي اخلط حزمة من الأعشاب واغلها واضرب ماءها حتى يغلظ وادهن به أو اشربه)، وأعفاه من الاستمرار في العزلة التي فرضها المرض {ولا تحنث}. كل ذلك لأنه {إنا وجدناه صـــابرًا نعم العبد إنه أواب}. ثم يذكر الله كوكبة أخرى من عباده المصـــطفين الأخيار: إبراهيم وإســـحاق ويعقوب أصـــحاب القوة والبصـــيرة، الذين تميزوا بتركيزهم على الدار الآخرة، وإسماعيل واليسع وذا الكفل.

بعد هذه القصص التي تمثل "الذكرى"، تنتقل السورة لبيان عاقبة المتقين {وإن للمتقين لحســن مآب}، فتصــف نعيمهم في جنات عدن المفتوحة الأبواب وما فيها من إكرام وراحة وفاكهة وشـــراب ورفقة طيبة، مؤكدةً أنه الوعد الحق ليوم الحســـاب ورزق دائم لا ينفد. وفي المقابل تمامًا {هذا وإن للطاغين لشــر مآب}، تصــف جهنم ومهادها الســيء (إمّا فعلهم الذي مهّد لهم طريقها أو إقامتهم فيها)، وما يذوقونه فيها من حميم وغساق وأنواع أخرى من العذاب، وتصور مشــهد تخاصــمهم المرير وتبادل اللوم بين الأتباع والقادة، وندمهم على ســـخريتهم من المؤمنين في الدنيا، مؤكدةً أن {ذلك لحق تخاصم أهل النار}.

ثم تعود السورة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، لتؤكد له وللناس مهمته {قل إنما أنا منذر}، وتعيد إعلان التوحيد الخالص {وما من إله إلا الله الواحد القهار}. وتصف الرسالة بأنها {نبأ عظيم} يُعرِض عنه المكذبون. وتقدم الآية على صدق نبوته بنفي علمه المسبق بحوار الملأ الأعلى بشأن خلق آدم لولا الوحي. وتستعرض تفاصيل هذا الحوار: أمر الله لموجودات الكون بالانقياد لآدم بعد خلقه وتكريمه، وامتثالهم جميعًا، وعصيان إبليس الوحيد بسبب استكباره الناتج عن مقارنة عنصرية مادية زائفة {أنا خير منه}، وعاقبته بالطرد من الرحمة (الفناء) واللعنة. ثم تذكر طلب إبليس للإنظار وقسمه على إغواء البشر فلا ينجو إلا المخلصون، وقضاء الله الحتمي بملء جهنم منه ومن أتباعه في الكبرياء الزائف، لتكشف أن أصل الشقاق الذي يعاني منه أهل مكة هو هذا الكبر الإبليسي. وتختم السورة بتوجيه أخير للنبي ليؤكد للناس أنه لا يطلب أجرًا وليس متصنعًا أو كاذبًا {وما أنا من المتكلفين}، وأن هذا القرآن ليس إلا تذكيرًا للعالمين أجمع، وتترك المكذبين أمام وعدٍ ووعيدٍ قاطع بأن حقيقة هذا النبأ ستُعلم وتتضح {ولتعلمن نبأه بعد حين}.

المعنى الشمولي (ص)

تتمحور سورة "ص" حول مواجهة الكبرياء والمعاندة {عزة وشقاق} التي تمثل أصل التكذيب بالذكر (القرآن والتوحيد)، خاصةً في ردها على استهزاء المشركين وطلبهم تعجيل العذاب. السورة تقدم، من خلال بنيتها السردية المتداخلة، علاجًا وتعزية للنبي عبر استحضار قصص الأنبياء الأوابين (داود، سليمان، أيوب) الذين، رغم ما أوتوا من ملك وقوة أو ما ابتلوا به من فتن ومصائب، كان مفتاح نجاتهم وقربهم من الله هو العودة الدائمة إليه {أواب} والصبر الجميل {صابر}. هذه القصص، بتفاصيلها الموحية كما بيّنتها الإضاءات اللغوية بعيدًا عن الإسرائيليات، تقدم نماذج عملية في التعامل مع السلطة والابتلاء والشهوة والغفلة، وتؤكد أن الأوبة والتوبة هما السبيل للقرب الإلهي {لزلفى وحسن مآب}.

وفي مقابل هذه النماذج المشرقة، تحذر السورة من مصير أحزاب المكذبين السابقين، وتفصّل في عذاب الطاغين وتخاصمهم في النار، لتؤكد على حتمية الجزاء المستحق على الكفر والاستكبار. وتعود السورة إلى الجذر الأول للشقاق في قصة عصيان إبليس، مظهرةً أن الكبر والحسد ورفض أمر الله هما أساس الضلال والعداوة. وبهذا، تختتم السورة بتأكيد مهمة النبي كمنذر أمين لا يتكلف، وأن

القرآن ذكر للعالمين، ســتتجلى حقيقته حتمًا في المســتقبل، تاركةً المكذبين أمام مســؤولية اختيارهم بين طريق الأوبة أو طريق العزة والشقاق.

أمامنا الآن إحدى السور الطوال أو الطوَل كما سمّاها السابقون، وهي السورة التالية لسورة ص في النزول حسب الترتيب الذي اعتمدناه مع معرفتنا بأنه ما من ترتيب يقينيّ، وهي سورة مكّيّة، سمّيت بسورة الكتاب، لأنّها تبدأ بذكر الكتاب وتنتهي به، ولا تغادر فكرة الإيمان به، إذ إنّ هذه الفكرة هي الخيط الناظم لكلّ القصص التي يستحضرها القرآن من قصص الأقوام وأنبيائهم.

تبدأ السورة بحروف مقطّعة، وهذا رأيناه في سورة القلم و سورة ص وغيرهما، ورأينا أنّ وجودها يرتبط بذكر الكتابة أو القرآن أو الذكر أو فتنة الإيمان بهذا الذكر، وهذا مطّرد في القرآن، باستثناء سورة واحدة وهي سورة الروم، إذ يأتي بعد الأحرف المقطّعة آية "غلبت الروم" وهي في ترتيب النزول السورة رقم 84. ولا أريد أن أحاجج هنا بأنّ هذا لا يضرّ بهذا الاطّراد، لكنّني أكتفي بذكر فكرة واحدة لا تفارقني بشأن الحروف المقطّعة واستثناء هذه السورة، سأعود إليه بتفصيل إذا مدّ الله في عمري حتّى أقرّب معناها: إنّ التأسيس لعرف أو منطق قرآنيّ يتكرّر كثيرا قبل هذه السورة ثم يعود ليتكرّر بعدها، يكفينا لكي نعدّ ورود هذا الاستثناء من باب الاكتفاء. والاكتفاء عند العرب هو أن تقول شيئا ثم تسكت عن تتمّته المعهودة. وبهذا فإنّ

معنى الحروف المقطّعة الذي استقرّ لنا أنّها رمز الذكر وتنبيه على هذه الأدوات التي هي مادّة الذكر ومادّة القرآن، ويبقى البحث في اختيار حروف معيّنة في سورة دون أخرى مبحثا ملغزًا، نتركه لوقت لاحق أو لكتاب آخر.

وكما أقررنا في المنهج الذي ابتدعناه للتعامل مع السور الطويلة نسبيًّا، سنبدأ بالإضاءات اللغويّة التي قد تطول، مستعينين بما جرى ذكره من قبل لكي لا نطيل.

الإضاءات اللغويّة

- **المص**: من الأحرف المقطعة التي تفتتح بها بعض السور، وهي كما ذكرت في المقدّمة مادّة القرآن.
- **فلا يكن في صدرك حرج منه**: خطاب مباشر للنبي صلى الله عليه وسلم في بداية السورة، يقول له إنّ عليك ألّا تشعر بالضيق من كون آيتك لقومك هي الكلمات، وهذا يشي بأنّ طلب الآيات المجسّدة أو استعجال العذاب أو رؤية الملائكة أو الله لم تزل هي الحجج المعتمدة لقريش أمام النبي والقرآن الذي نزل عليه.
- **ولا تتبعوا من دونه أولياء**: نهي عن اتخاذ أي أنصار أو حلفاء أو جهات يُعتمد عليها وتُتبع أوامرها من غير الله تعالى وما أنزله، وهو تأسيس لمحوريّة الوحي. ومن دونه هنا تفهم على وجهين: ممن هم دونه في المكانة،

أو ممّن يقطعون الطريق إليه (دونه)، وهي الغالبة في رأينا لأنّ المؤمنين يوالون بعضهم.

- **قليلًا ما تذكرون / تشكرون**: لازمة تتكرر، تصف حال أكثر الناس من الغفلة عن التذكر والاعتبار بآيات الله ونعمه، وقلة شكرهم عليها.

- **بياتًا أو هم قائلون**: وصف لمجيء العذاب الإلهي بغتة، إما ليلًا وهم نائمون {بياتًا} أو في وقت القيلولة والراحة {قائلون}، للدلالة على المباغتة وعدم القدرة على الاستعداد أو الدفع.

- **فما كان دعواهم... إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين**: تصوير لحال الهالكين عند نزول البأس؛ لم يكن لهم أي ادعاء أو حجة أو استغاثة إلا الاعتراف المتأخر بالظلم. {دعواهم} أي قولهم وادعاؤهم.

- **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين**: تأكيد قاطع باستخدام لام القسم ونون التوكيد الثقيلة على شمول المساءلة يوم القيامة؛ ستُسأل الأمم عما أجابت به الرسل، وسيُسأل الرسل عن تبليغهم وعن رد أقوامهم.

- **فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين**: تأكيد آخر على أن الله سيخبرهم بأعمالهم كلها بناءً على علمه المحيط الذي لا يغيب عنه شيء.

- **والوزن يومئذ الحق**: {الوزن} أي تقييم الأعمال ومعيارها يوم القيامة هو {الحق} والعدل المطلق، لا المحاباة ولا المقاييس الدنيوية. {الموازين} لاحقًا تشير إلى محل هذا الوزن، وهو وزن معنويّ يقيس حسنات الناس (صفاتهم الحسنة وأعمالهم الخيّرة) مقابل سيئاتهم (صفاتهم السيئة وأعمالهم الشريرة)، وليس عدّادًا يعدّ الحسنات، وهذا المعنى مطّرد في القرآن وهو ما تعنيه الكلمة في العربيّة، ولا أصل في اللغة أو القرآن لفكرة العدّاد التي يتداولها الناس.
- **مكّنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش**: تذكير بنعمة التمكين والاستقرار في الأرض وتوفير أسباب الحياة {معايش}، مقابل قلة الشكر.
- **خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا... اسجدوا**: الترتيب باستخدام {ثم} تفيد الترتيب على التراخي وهذا قد يكون في سنين أو في عقود أو قرون أو أيّام، المهم أنّها مراحل الخلق والتكريم الإلهي لآدم وذريته قبل الأمر بالسجود، ولاحظوا هنا أنّ خلق البشر كلّهم وتصويرهم كلّهم جاء قبل أمر السجود لآدم حسب منطوق الآية، فهذا مجاز على أنّ خلق النوع هو خلق لكلّ من هم داخل هذا النوع.

- **ما منعك ألّا تسجد**: نحن نعرف المعنى من سورة سابقة، فهو : ما منعك من السجود! سؤال استنكاريّ، أمّا أنّه جاء مع ألّا، فالمعنى هنا: ما منعك إذ لا تسجد؟
- **الصاغرين**: المهانين الأذلاء، وهو عكس الكبرياء الذي ادعاه إبليس، والصاغر صفة فاعل وكأنّه هو الذي حقّر من نفسه.
- **فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم**: إسناد إبليس الإغواء إلى الله (على معنى حكمتَ عليّ بالغواية أو فتنتني حتّى غوي)، ثم إعلانه الحرب على ذرية آدم بإصراره على إضلالهم عن الطريق المستقيم، وها هو السراط كما سبق أن فهمناه بعيدا عن خرافة متداولة بأنّه سلك فوق جهنّم.
- **مذءومًا مدحورًا**: مذمومًا أشد الذم ومهزومًا.
- **ولا تقربا هذه الشجرة**: أي مباح لكم الأكل من أي مكان في الجنّة سوى هذه الشجرة، فهذه عليكم الابتعاد عنها، والشجرة قد تكون مجازًا أو حقيقة، وقد تكون شجرة بعينها أو نوعًا من الأشجار، ولأنّ القرآن سكت عن بيان ذلك فنحن نعلم أنّه إنّما يريد أن نأخذ العبرة لا أن نتخيّل القصّة. فما العبرة من هذه القصة؟ يظهر ممّا يلي هذه الآية أنّ المقصود هو التكبّر، وهذا واضح في حديث "الشيطان" لهما بأنّهما سيكونان ملَكين، أو من الخالدين،

وهذه كلّها محاكاة لطمع الإنسان وكبره وأنّه يرى نفسه مستحقًّا لارتفاع الشأن بعمله.

- **فوسوس لهما الشيطان**: قد يكون الشيطان (بعيد المأخذ في الأمر) هنا شطحان الإنسان عن سبيل الحق، ومنه شيطان الغضب، وشيطان الشهوة، كما نعرف أن العرب كانت ترى أن للشعر شيطانًا، وقد سبق أن مررنا بهذا، ولكنّه أيضًا يمكن أن يكون "إبليس" نفسه، فهو شيطان بقوّته وسرعته وابتعاده عن الحق.
- **ما ووري عنهما من سوءاتهما**: ما كان مستورًا ومخفيًا من عوراتهما أو مواضع ضعفهما. {ووري} من المواراة أي الستر.
- **أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين**: الإغواء المزدوج الذي قدمه الشيطان لآدم وزوجه، بالملك والسلطة أو بالخلود وعدم الفناء.
- **وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين**: زاد في خداعه بأن أقسم لهما بالله كاذبًا أنه ناصح أمين، مما أدى إلى اطمئنانهما له.
- **فدلاهما بغرور**: دلّاهما ضدّ دلّهما، أي خدعهما، والغرور هو الخداع والتزيين، والغرور أيضًا الكبر الفارغ.

- **طفقا يخصـــفان عليهما من ورق الجنة**: لما ظهر ما يسـوء كلًّا منهما من نفسـه (سـوءاتهما) شـرعا وأخذا بسـرعة يقطعان من ورق الجنّة ليختفيا أو يخفيا شـيئا منهما تحت هذه الأوراق.

- **ربنا ظلمنا أنفسـنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسـرين**: صـيغة التوبة والاعتراف بالذنب وطلب المغفرة والرحمة، ولكن علينا الانتباه إلى صـيغة أنفسـنا رغم أنّه يتحدّث عن اثنين قبل ذلك، ولو كان الأمر كما يفهم الناس لكان الأصـل لغة أن يقول ظلمنا نفسـينا، فآدم وحوّاء في عرف الناس اليوم هما اثنان فقط، لكنّ القرآن يكمل فيقول: اهبطوا بعضـكم لبعض عدوّ. فهو يتحدّث إلى جماعة لا زوجين، وقال المفسّـرون أنّ سـبب الجمع هو وجود إبليس معهما، لكنّ هذا لا يحلّ مشكلة "أنفسنا" السابقة، فالغالب على الظنّ أنّ الكلام هنا عن آدم بوصفه نوعًا لا بوصـفه فردًا. والآدم هو المخلوق من الأدم وهو تراب الأرض الأسود الذي يصنع منه الطين.

- **لباس التقوى ذلك خير**: بعد ذكر اللباس الحسـي السـاتر للعورة، والزينـة من قبيل الريش، يـأتي التـأكيد على أن لبـاس التقوى (الذي يقي من عذاب الله ويسـتر عيوب النفس) هو الأفضـل والأبقى. فمصـيبة الإنسـان هي طمع

حاكى كبره فارتكب خطيئة أبدت له عن نفسه ما يسوؤه، ويقيه من ذلك "لباس التقوى".

- **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم**: إنّ هذا الشيطان (فإذا كان نفسيا يكون من باب التشخيص في الأدب، كما قد أقول: إذا مررت بالفرح لم يعرفني**!**، وقد يكون وصفا لكائن بعينه كإبليس) يراكم هو ومن مثله، ولا ترونه.
- **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها**: فضح لمنطق المشركين في تبرير فواحشهم (كالطواف عراة مثلًا): الاحتجاج بالتقليد الأعمى للآباء، والافتراء على الله بأنه أمر بها.
- **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء**: رد قاطع ينزه الله تعالى عن الأمر بالقبيح والمنكر.
- **قل أمر ربي بالقسط**: بيان لما يأمر الله به حقًا: العدل والاستقامة والاعتدال.
- **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين**: الأمر بالتوجه إلى الله وحده في كل أمر أو مكان هو موضع سجود (طاعة) والدعاء له، مع الحرص على أن يكون دين المرء نقيًّا من الشوائب التبريريّة.

- **فريقًا هدى وفريقًا حق عليهم الضـــلالة... إنهم اتخذوا الشـــياطين أولياء:** بيان لانقســـام الناس وســـنة الله في الهداية والضـــلال بناءً على اختيار الإنســـان؛ فمن اتخذ الشـيطان وليًا من دون الله حقت عليه الضـلالة وظن أنه مهتدٍ.
- **خذوا زينتكم عند كل مســـجد:** الأمر بالتجمل والتزين الظاهر اللائق عند العبادة، ردًا على من كانوا يطوفون عراة أو يحرّمون على أنفسهم أنواعًا من اللباس.
- **وكلوا واشـــربوا ولا تســـرفوا:** إباحة الطيبات مع الأمر بالاعتدال وتجنب الإسراف والتبذير.
- **قل من حرم زينـة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق:** اســـتفهام إنكاري على من يحرمون ما أحل الله من الزينـة والطيبـات بـدافع رهبـانيـة مبتـدعـة أو تقليـد جاهلي، وهذه الآية سـتحضـرنا فيما بعد عندما نرى من يحرّم الزينة أو اللهو على إطلاقه.
- **قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة:** هذا الترتيب البديع للكلمات في الآية فيه بيان أن هذه الطيبات متاحة للمؤمنين في الدنيا (مع مشـــاركة غيرهم فيها)، لكنها في الآخرة ستكون خالصـة لهم لا يشـاركهم فيها أحد.

- **قل إنما حرم ربي الفواحش... والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله... وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون:** تحديد دقيق للمحرمات الحقيقية وهي الأمور المحرّمة حصـــرًا: القبائح الظاهرة والباطنة، والظلم والعدوان، والشرك، والقول على الله بغير علم.
- **ولكل أمة أجل... لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون:** تقرير لحقيقة أن لكل أمة وقتًا محددًا لنهايتها لا يتأخر ولا يتقدم.
- **إما يأتينكم رسـل منكم يقصـون عليكم آياتي فمن اتقى وأصـلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون:** شـرط وجواب: إذا جاء الرسـل بالآيات، فالنجاة لمن استجاب بالتقوى والإصلاح. ويقصّ يعني يتتبّع.
- **والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار:** في المقابل، التكذيب والاستكبار عن الآيات يؤدي إلى الخلود في النار.
- **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته:** اسـتفهام يبين أن أعظم الظلم هو الكذب على الله أو تكذيب آياته، وهنا نرى التهمتين: تهمة قريش أنّ محمّدًا يفتري على الله الكذب، وتهمة القرآن لقريش أنّهم يكذّبون كلام الله.

- **أولئك ينالهم نصـــيبهم من الكتاب**: أي يصـــلهم الجزاء الذي تضمّنه العهد الذي قطعناه بمحاسبتهم.
- **حتى إذا جاءتهم رســـلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون**: مشـــهد البعث، حيث تســـأل الملائكة التي تأتي بأرواح الكفار عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها.
- **قالوا ضـــلوا عنا وشـــهدوا على أنفســـهم أنهم كانوا كافرين**: اعتراف الكفار عند الموت بضـــلال شـــركائهم وضياعهم، وشهادتهم على أنفسهم بالكفر.
- **قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار**: الأمر الإلهي لهم بدخول النار مع الأمم الكافرة الســابقة من الجن (أقوام جنّت عنّا أي خفيت عن البشــر) والإنس.
- **كلما دخلت أمة لعنت أختها**: وصـــف لحال أهل النار، حيث تلعن كل جماعة سابقتها أو شبيهتها في الضلال.
- **حتى إذا اداركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا**: عندما يجتمعون كلهم في النار، يلوم الأتباعُ القادةَ ويطلبون لهم عذابًا مضاعفًا. {اداركوا} أي تلاحقوا واجتمعوا.
- **قال لكل ضـــعف ولكن لا تعلمون**: جواب الله بأن العذاب مضـــاعف للجميع (القادة والأتباع) لأن كلًا منهم كان له

دوره في الضـــلال، ولكنهم لا يـدركون حقيقـة توزيع العذاب وعدل الله فيه.

- **وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضـــل فذوقوا العذاب**: رد القادة على الأتباع: لم يكن لكم فضـل علينا في اتباعنا باختياركم، فذوقوا العذاب مثلنا. تبرؤ ولوم متبادل.

- **لا تفتح لهم أبواب السـماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط**: تأكيد على استحالة نجاة المكذبين المستكبرين؛ فلا قبول لأعمالهم أو أرواحهم في السماء، ولا دخول لهم للجنة، واستخدام تشبيه مستحيل (دخول الجمل في ثقب الإبرة)، وهذا التشبيه له سابقة في الكتاب المقدّس إذ يقول يسوع ما معناه أنّ مرور الجمل من ثقب الإبرة أيســـر من دخول الغنيّ إلى ملكوت الله. وثمّـة علاقة واضـــحة بين الغنى والاســـتكبار نجدها جليّة في القرآن السابق في نزوله لهذه السورة.

- **لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش**: وصف لعذابهم؛ النار مهادهم أي فراش من تحتهم (وهنا عرفنا أنّ مهاد التي مرّت بنا ســـابقًا تعني الفراش) ولهم منها (جهنّم) أغطية من فوقهم.

- **لا نكلف نفسًا إلا وسعها**: جملة اعتراضية للتأكيد على عدل الله وأن تكاليف الإيمان والعمل الصـــالح في حدود

قدرة الإنسان وطاقته. وهذا يستشهد به الناس على صورة أخرى فيقولونها عند ورود أمر صعب، ولكنّها تقول أيضًا إنّ ما كلّفتكم به هو ضمن وسعكم.

- **ونزعنا ما في صدورهم من غلّ**: وصف لحال أهل الجنة؛ تطهير قلوبهم من كل حقد كان في الدنيا، فهم لا يشعرون بغلّ، وهذا من العذاب الذي يلاحق الناس في الدنيا إذ يكونون أسرى للحظة ظلم واجهوها.
- **وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**: اعتراف أهل الجنة بفضل الله وحده في هدايتهم ودخولهم الجنة.
- **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**: نداء تكريم لأهل الجنة بأن الجنة ميراث لهم بسبب أعمالهم الصالحة.
- **فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين**: ينادي أناس من بينهم من داخل الجحيم باللعنة على من ظلموهم.
- **الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا وهم بالآخرة كافرون**: تعريف بالظالمين المستحقين للعنة: الذين يمنعون الناس عن دين الله، ويريدون أن تكون الحياة معوجة مائلة عن الحق، وهم كافرون بالآخرة

يشوّشون على الرسالة التي جاءت بالبشارة بها وبالإنذار منها.

- **وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلًا بسيماهم**: وصف للحاجز الفاصل بين الجنة والنار، ووجود "رجال" على مكان مرتفع {الأعراف} (والأعراف أيضًا ما يتعارف عليه الناس لكنّها هنا المكان العالي) يميزون أهل الجنة وأهل النار بعلاماتهم. وهويّة أهل الأعراف مختلف فيها، والسبب هو تنكيرهم بصفة رجال، فقد ظنّ المفسّرون أنّهم من البشر من أهل الدنيا، وقالوا هم كذا وكذا، ولكنني مع القول الذي يرى أنّهم ملائكة، فكلمة رجال قد تعني جمع الرَّجْل وهو الجماعة، والسرب.

- **ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون**: نداء أهل الأعراف (الملائكة في رأينا) لأهل الجنة بالسلام، وحال أهل الأعراف أنهم لم يدخلوا الجنّة لكنهم يرجون دخولها.

- **وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين**: وصف لحال أهل الأعراف عند رؤية أهل النار؛ يستعيذون بالله من مصيرهم.

- **ونادى أصحاب الأعراف رجالًا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون**: توبيخ أهل

الأعراف لزعماء الكفر الذين يعرفونهم في النار: أين قوتكم وجموعكم واستكباركم الآن؟

- **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة:** إشارة من أهل الأعراف (وقد تكون استئنافًا لكلام يقوله الله، لكنّنا إذا قبلنا أن هذا من كلام أهل الأعراف فإننا نقترب من فهم كونهم ملائكة على سور مرتفع بين النار والجنّة) إلى المؤمنين المستضعفين الذين كان الكفار يقسمون أنهم لن يدخلوا الجنة، ثم يأتي كلامهم إلى المؤمنين ووعد لهم بأن يكونوا آمنين فيها.
- **أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله:** استغاثة أهل النار بأهل الجنة يطلبون منهم شيئًا من ماء الجنة أو طعامها.
- **قالوا إن الله حرمهما على الكافرين:** رد أهل الجنة القاطع بأن نعيم الجنة محرم على الكافرين.
- **الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرتهم الحياة الدنيا:** سبب تحريم النعيم عليهم: استهتارهم بالدين وانخداعهم بالدنيا.
- **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا:** الجزاء من جنس العمل؛ ينساهم الله ويتركهم في العذاب كما نسوا

هم يوم القيامة وأعرضـــوا عنه. {ننســـاهم} أي نتركهم ونـهملهم.

- **ومـا كـانوا بـآيـاتنـا يجحدون:** ســـبب آخر لعذابهم وهو جحودهم وإنكارهم لآيات الله.
- **ولقد جئنـاهم بكتـاب فصـــلنـاه على علم هدى ورحمـة:** تأكيد على أن الله أقام الحجة عليهم بإرسال كتاب مفصل مبني على العلم، فيه هداية ورحمة، ولكنهم رفضوه.
- **هـل ينظرون إلا تـأويلـه:** أي هـل ينتظر المكـذبون إلا وقوع ما أخبر به الكتاب على الهيئة التي ســـيؤول إليها وتحقق وعيده؟ {تـأويلـه} أي مآله النهائي، وهي لا تعني التفسير، فالتفسير للكلام الغامض، أمّا التأويل فهو لكلام فهم بقدره، لكنّ مآله الحقيقيّ غير معروف وسيظهر يوم القيامة، فثمّة مسـافة بين الخبر وحقيقة الأمر خصـوصًـا إذا كان من الغيب الذي لا نعرفه حتّى نجد له أســـماء يسمّيها لنا الله.
- **يوم يأتي تأويله يقول الذين نســـوه من قبل قد جاءت رســـل ربنـا بـالحق:** عند وقوع العذاب فعلًا، يعترف الكافرون بصدق الرسل ولكن بعد فوات الأوان.

- **فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل:** تساؤلهم اليائس عن وجود شفعاء أو فرصة للعودة للدنيا لتغيير أعمالهم.
- **قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون:** الحكم النهائي عليهم بالخسران، وضياع أكاذيبهم التي كانوا يخترعونها.
- **إن ربكم الله الذي خلق... استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا... ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين:** إعادة تأكيد على ربوبية الله وقدرته وعظمته من خلال ذكر خلقه للسماوات والأرض في ستة أيام (أطوار)، واستوائه على العرش، وتدبيره للكون (تعاقب الليل والنهار، تسخير الشمس والقمر والنجوم)، وانفراده بالخلق والأمر، فهو المبارك رب كل العوالم. وتعبير (يطلبه حثيثا) جاء للدلالة على أنّ العمر يمرّ مسرعًا وأنّ الإنسان يجب أن يسارع في الخير.
- **ادعوا ربكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين:** الأمر بالدعاء وجواز أن يكون هذا الدعاء تضرّعًا (علنيًّا وهو من الضرع أي الثدي إذ كانت الناس تدعوا فتشق ثيابها وهو من السلوك المذموم الذي لم يزل حتّى وقت قريب بين الناس في لحظات المصيبة، وجرى هذا الاسم على كلّ الدعاء العلنيّ)، وجواز أن يكون هذا الدعاء خفيًّا،

مع النهي عن الاعتداء في الدعاء (كالدعاء بالإثم أو رفع الصوت بغير أدب مع الله أو شقّ الثياب أو الدعاء على أحد بغير حق).

- **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا**: النهي عن الإفساد في الأرض بعد أن أصلحها الله بالشرائع أو بالخلق، والأمر بدعاء الله بحالتي الخوف من عقابه والطمع في رحمته.

- **إن رحمت الله قريب من المحسنين**: وعد بأن رحمة الله قريبة ممن يحسنون في عبادته ومعاملة خلقه. {قريب} خبر (إنّ) يمكن تذكيره لأنه بمعنى شيء قريب أو نسبة قريبة. والتذكير والتأنيث لم يكن قديما كما يعرفه العرب اليوم، وفي العربية يجوز التذكير والتأنيث للمعنويّات، والتاء التي تسمّى تاء تأنيث قد تكون تاء الفرادة.

- **وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته... كذلك نخرج الموتى**: الاستدلال بظاهرة إحياء الأرض الميتة بالمطر الذي تسوقه الرياح كدليل على قدرة الله على إحياء الموتى للبعث. {بشرى} أي ما يستبشر به من مطر. {بين يدي رحمته} أي أمام المطر الذي هو رحمة. {أقلت} أي حملت. {سحابًا ثقالًا} أي محملة بالماء. {بلد ميت} أي أرض قاحلة. وهذا مثال مركّب فالرياح هنا تذكّر بالرسل الذين يأتون بالبشرى لمن ستنالهم الرحمة.

- **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا**: تتمّة للمثال المجازي الذي فهمناه وقرينة على أنّنا لم نشطن في فهنا، فالنبات مثل للمؤمن والكافر؛ فالقلب المؤمن كالبلد الطيب يقبل الحق وينتج الخير بسهولة، والقلب الكافر كالبلد الخبيث لا يقبل الحق ولا ينتج خيرًا إلا قليلًا وبصعوبة. {نكدًا} أي قليلًا عسرًا. وهو وإن لم يصرّح بالمؤمن والكافر، فإنّ قرنه ذلك بإخراج الموتى، وأنّ عليه المطر والبشرى واستجابة الأرض تختلف حسب طبيعتها لهو إشارة واضحة للرسالة وأثرها في الناس.
- **كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون**: هكذا ننوع ونوضح الآيات والحجج للناس الذين من شأنهم أن يشكروا النعمة ويستفيدوا من الذكرى.
- **قومًا عمين**: وصف لقوم نوح بأنهم كانوا عمي القلوب عن رؤية الحق.
- **سفاهة**: خفة العقل والجهل والحمق. اتهام قوم هود له.
- **زادكم في الخلق بسطة**: قيل منحكم قوة وضخامة في الأجسام، وأقول بل هي السعة في العيش، وهي على كل حال نعمة ذكر بها هود قومه وهم يعرفونها.

- **آلاء الله**: نعم الله العظيمة الظاهرة والباطنة أو آياته وعلاماته، ومفردها مختلف فيه فقيل هي ألى أو إلْي... إلخ، لكنّ المفرد منها غير مستخدم، والآلاء هي كلّ واضح من الأمر.
- **قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب**: إخبار من هود لقومه بأن العقوبة والغضب قد حقت عليهم واستحقت النزول. {رجس} أي عذاب أو قذر معنوي.
- **أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان**: توبيخ لهم على جدالهم في مجرد أسماء لأصنام لا حقيقة لها ولا دليل على ألوهيتها.
- **فانتظروا إني معكم من المنتظرين**: تحدٍ منه لهم بانتظار حكم الله الفاصل.
- **وقطعنا دابر الذين كذبوا**: أي استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم.
- **بوأكم في الأرض**: أسكنكم ومكنكم في الأرض.
- **ولا تعثوا في الأرض مفسدين**: لا تسعوا بالفساد والظلم في الأرض.
- **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم**: جمعوا بين قتل الآية (الناقة) وبين التمرد الصريح على أمر الله. {عتوا} أي استكبروا وتجاوزوا الحد في العصيان لأمر ربّهم.

وجـاء إبـدال حرف الجرّ عن مكـان حرف الجرّ على للـدلالـة على الانحراف عن الأمر، وقـد يقبح في هـذا السياق أن تكون على فتعني أنّ أمرهم أعلى من أمر الله.

- **الرجفـة... جـاثمين**: الزلزلـة الشـــديدة التي أهلكتهم.. ساقطين على وجوههم أو ركبهم لا حراك بهم.
- **فكيف آسـى على قوم كافرين**: كيف أحزن وأشـفق على قوم أصروا على الكفر حتى أهلكهم الله؟
- **الفاحشـــة**: الفعلة المتناهية في القبح وهي إتيان الرجال شــهوة من دون النســاء حســب منطوق لوط لهم، ولكنّنا نعلم من قصّــة مرّت الإشــارة لها أنّهم حاولوا الوصــول إلى ضيف لوط من الملائكة، فهم يأتون ذلك غصبًا.
- **قوم مسـرفون**: متجاوزون للحد في كل شـيء، وخاصـة في المعصية.
- **أنـاس يتطهرون**: قالها قوم لوط ســخرية وازدراءً بلوط ومن معه، أي يتنزهّون عما نحن فيه!
- **من الغـابرين**: من البـاقين في العـذاب الهـالكين (زوجـة لوط). وسيكون لنا مع القصّـة التي تفهم خطأ بأنّها كانت مع لوط وقت نجاته، فها هو القرآن يســتثنيها من النجاة في قرار الله بإهلاكهم مسبقًا.

- **ولا تبخسوا الناس أشياءهم**: لا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل أو الوزن أو غيره.
- **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجًا**: النهي عن قطع الطريق على المؤمنين وتهديدهم وصدهم عن دين الله ومحاولة تشويهه {تبغونها عوجًا}.
- **كأن لم يغنوا فيها**: كأنهم لم يقيموا ولم يعيشوا في ديارهم من قبل إقامة منعّمة، دلالة على الإزالة التامة.
- **ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا**: قانون الابتلاء والرخاء؛ بعد الشدة يأتي اليسر حتى يكثروا وينموا وينسوا {عفوا} والعفو النسيان إذ يقولون إنّ آباءهم عاشوا حياة مرّوا فيها بالسرّاء والضرّاء، أي إنّ ذلك من تقلّب الحياة الطبيعيّ، وليس سنّة في الكون بإهلاك الظالمين.
- **ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا...**: تصريح من الله بأنّ الازدهار في الحياة الدنيا معلّق بعهد الأمان وتقوى الله، وهكذا فإنّ السنة التي يخبرنا بها القرآن بأنّ الازدهار معلّق بالتناصح والتقوى (أن تحذر من ارتكاب الشر)، ولكنّهم كذّبوا (والكلام هنا عن الأمم التي ورد ذكرها) بأنّهم كذّبوا الرسل الذين جاؤوا لهم بعهد الله.

- **فأخذناهم بغتة**: جاءهم العذاب فجأة وهم لاهون غافلون.
- **أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**: التحذير من الأمن من تدبير الله وعقوبته المفاجئة، فالغافلون الآمنون هم الخاسرون حقًا. وهذا تحذير من أن يظنّ الإنسان نفسه في مأمن وعصمة وألّا يواصل محاكمة نفسه، فمجرّد الظنّ بأنّه في الناجين هو استكبار على الله وعباده.
- **أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها**: ألم يتبين لهؤلاء الوارثين من مصير السابقين ما يرشدهم؟ استفهام للتوبيخ على عدم الاعتبار بالتاريخ.
- **وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين**: شهادة إلهية على الطبيعة الغالبة في الأمم من نقض العهود والخروج عن الطاعة {فاسقين}. ولنلاحظ هنا أنّهم عاهدوا أنبياءهم على أن يصدّقوا لو رأوا الآيات، فلما رأوها فسقوا، وهذه إشارة للنبيّ بأنّ آيته الوحيدة هي آيات القرآن.
- **فظلموا بها**: ظلموا أنفسهم بتكذيب آيات موسى الواضحة.
- **حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق**: جدير بي وموجب عليّ ألا أنسب إلى الله إلا الحق.

- **ثعبان مبين**: حية عظيمة واضحة للعيان ليست تخييلًا كالسحر.
- **يده بيضاء للنظّرين**: يده تخرج بيضاء مشرقة دون مرض، آية للمتأملين. وهي من آيات موسى.
- **الملأ من قوم فرعون**: ليسوا بالضرورة الأغلبية لكنّهم أصحاب الرأي النافذ وعلية القوم.
- **يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون**: أي ما الذي تعقدون عليه أمركم، وليس بالضرورة أن يأمروا فرعون، وإن كان هذا يدلّ على أنّه ما من طاغية يطغى إلّا وله أناس كان يمكن أن تردّه عن غيّه. أمّا فكرة أنّه يريد أن يخرجكم من أرضكم، فهو كلام بلاغيّ أو دعاية مضلّلة، فهو يريد إخراج بني إسرائيل كما يصرّح، لكنّ هذا يغيّر في طبيعة حكم فرعون. ونكرّر على أنّه ما من دليل قرآنيّ حتّى الآن أنّ فرعون هذا هو حاكم وادي النيل.
- **أرجه وأخاه**: أخّر أمرهما ولا تتعجل في شأنهما.
- **تلقف ما يأفكون**: تبتلع وتلتقط بسرعة ما يزورونه ويخترعونه من السحر. {يأفكون} من الإفك وهو الكذب والزور.
- **فوقع الحق**: ظهر وثبت الحق وزال الباطل.

- **وانقلبوا صاغرين**: أي إنّ السحرة غلبوا وظهر ضعفهم بعد اعتدادهم بقدرتهم.
- **وألقي السحرة ساجدين**: خرّوا ساجدين بشكل يوحي بالقهر والإذعان المفاجئ لقوة الحق.
- **وما تنقم منا إلا أن آمنا**: ما تعيب علينا وتكره منا إلا إيماننا بآيات ربنا.
- **أفرغ علينا صبرًا**: أصبب علينا صبرًا واسعًا عظيمًا لنثبت على الحق.
- **أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك**: أتتركهم ينشرون دعوتهم ويفسدون نظامك ويجعلوك تُترك أنت وآلهتك؟ تحريض من ملأ فرعون.
- **بالسنين ونقص من الثمرات**: بالقحط والجدب وقلة المحاصيل.
- **يطّيروا بموسى**: يتشاءموا به وبمن معه.
- **طائرهم عند الله**: شؤمهم ومصائرهم مقدرة من عند الله بسبب أعمالهم.
- **آيات مفصلات**: علامات واضحات بينات متتابعات.
- **الرجز**: العذاب أو الطاعون أو نوع من البلاء.
- **ينكثون**: يغدرون وينقضون العهد.

- **اليمّ**: الماء العظيم من بحر أو نهر (بالمعنى الحاليّ للكلمتين فالبحر أيضًا في العربية قد تعني النهر العظيم).
- **وتمت كلمت ربك الحسنى... بما صبروا**: تحققت كلمة الله ووعده الحسن بالنصر والتمكين لبني إسرائيل بسبب صبرهم.
- **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**: إهلاك شامل لحضارتهم ومنشآتهم وما كانوا يبنونه من قصور أو جنات معروشة. وهنا نرى أنّ قوم فرعون كما يقول القرآن لم يعد لهم أثر، ولذلك حرصنا في كلّ ذكر له أن نذكّر أنّ هذا ليس بالضرورة وادي النيل، وهي أكثر حضارات التاريخ في ترك الشواهد غير المدمّرة.
- **يعكفون على أصنام لهم**: يلازمونها عبادة وتعظيمًا.
- **متبّر ما هم فيه**: هالك زائل ما هم فيه من الشرك.
- **يسومونكم سوء العذاب**: يذيقونكم ويولونكم أشد العذاب.
- **فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة**: اكتمل الموعد المحدّد من الله لموسى.
- **اخلفني في قومي وأصلح**: كن خليفتي واؤمرهم بالصلاح.

- **لن تراني**: لن تستطيع رؤيتي أبدًا نفي قاطع للحاضر للمستقبل. وطلب الرؤية هنا امتداد لما طلبه منه القوم بأن يجعل لهم إلهًا يرونه كالأصنام التي مرّوا بها من قبل.
- **تجلى ربه للجبل جعله دكًا**: ظهر شيء من نوره أو عظمته للجبل فجعله مستويًا بالأرض.
- **خر موسى صعقًا**: سقط مغشيًا عليه من هول التجلي.
- **أنا أول المؤمنين**: أول من يؤمن بك (هنا تظهر كلمة يؤمن بمعنى قريب من "يصدّق"، وإن كان مصدّقًا من قبل، فهي تعني الاطمئنان إلى دعوته والشعور بالأمن تجاهها) وبجلالك وعظمتك (من قومي في هذا الموقف، أو إقرار متجدد بالإيمان).
- **اصطفيتك برسالاتي وبكلامي**: اخترتك وفضلتك بحمل رسالاتي وبسماع كلامي.
- **خذها بقوة**: خذ الألواح بجد وعزم والتزام.
- **سأريكم دار الفاسقين**: سأريكم عاقبة الخارجين عن الطاعة لتعتبروا (إما في الدنيا أو الآخرة).
- **سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون**: جزاء المتكبرين أن يُحجبوا عن فهم آيات الله والاهتداء بها.

- **سبيل الرشد / سبيل الغي**: طريق الصواب والهدى / طريق الضلال والهلاك.
- **حبطت أعمالهم**: بطلت وذهبت سدى بلا فائدة.
- **عجلًا جسدًا له خوار**: تمثال عجل أحمر (جسدًا) له صوت البقر، للتأكيد على أنه لا يملك من الألوهية شيئًا.
- **ولما سقط في أيديهم**: تعبير عن شدة الندم والحسرة لما تبين لهم خطؤهم.
- **أعجلتم أمر ربكم**: هل استعجلتم عذاب الله بما تفعلون؟ أو تعجّلتم قبل أن آتيكم بجواب الله.
- **وألقى الألواح**: من شدة الغضب والأسف على ما فعل قومه.
- **ابن أم**: يا ابن أمي! نداء استعطاف وتذكير بالرحم.
- **لا تشمت بي الأعداء**: لا تجعل الأعداء يفرحون بمصابي أو بما يقع بيننا.
- **ولما سكت عن موسى الغضب**: حين هدأ غضبه وسكن.
- **وفي نسختها هدى ورحمة**: في المكتوب في الألواح هداية ورحمة.
- **يرهبون**: يخافون الله خوف إجلال وتعظيم.

- **أخذتهم الرجفة**: الخوف الشديد الذي ارتعدوا له (السبعون المختارون للعذاب).
- **إن هي إلا فتنتك**: هذا الأمر ليس إلا اختبارًا منك يا الله.
- **هدنا إليك**: تبنا ورجعنا إليك، وقيل من هذا كان اسمهم يهودًا والذين هادوا، فهم قسم من بني إسرائيل يتوبون إلى الله.
- **فسأكتبها للذين يتقون...**: سأخص برحمتي أهل التقوى والزكاة والإيمان بالآيات.
- **النبي الأمي**: قيل: النبي الذي لم يقرأ ولم يكتب (على التفسير المشهور)، أو النبي المرسل إلى الأمم (غير بني إسرائيل)، أو النبي من أم القرى (مكة). وأقول قد يكون أيضًا النبيّ الذي هو من قوم ليس لهم كتاب.
- **يضع عنهم إصرهم والأغلال**: يرفع عنهم التكاليف الشاقة والقيود التي كانت عليهم (في شرائع سابقة أو من وضعهم). {إصرهم} أي ذنبهم الذي تسبّب بهذه التكاليف عليهم.
- **عزروه ونصروه**: وقروه وعظموه ونصروه.
- **النور الذي أنزل معه**: القرآن.
- **أسباطًا أممًا**: قبائل كالأمم المستقلة.

- **انبجست**: انفجرت وانشقت (للماء من الحجر).
- **المن والسلوى**: طعام سماوي حلوى وطائر السمان.
- **حطة**: أي اطلبوا من الله أن يحط عناكم خطاياكم.
- **فبدل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم**: استبدلوا كلمة التوبة بكلمة استهزاء، أو تركوها وبدّلوا هذا العهد.
- **رجزًا من السماء**: عذابًا نازلًا من السماء.
- **حاضرة البحر**: مدينة قريبة من البحر أو على شاطئه.
- **يعدون في السبت**: يتجاوزون الحد ويخالفون حرمة يوم عليهم أن يسبتوا فيه فيصطادون باحتيال.
- **حيتانهم**: الحيتان هنا السمك في عمومه.
- **شرّعًا**: ظاهرة على وجه الماء كثيرة وقريبة.
- **نبلوهم بما كانوا يفسقون**: نختبرهم بسبب فسقهم ومعصيتهم.
- **معذرة إلى ربكم**: لنقيم العذر أمام ربكم بأننا نصحناهم.
- **بعذاب بئيس**: بعذاب شديد مؤلم يورث البؤس أو يتّصف بالبأس أي القوّة والثانية أقوى.
- **فلما عتوا... قلنا لهم كونوا قردة خاسئين**: لما تمادوا في التمرد والعصيان، قضينا عليهم الذلّ والسكوت

عليه، والقردة هنا من الإقراد وهو عند العرب السكوت على الذلّ، وإظهار العجز.

- **وإذ تأذن ربك**: حين أعلم ربك وأقسم.
- **ليبعثن عليهم... من يسومهم سوء العذاب**: ليُسلّطنّ عليهم من يذيقهم أشد العذاب إلى يوم القيامة (عقابًا على تمردهم المستمر).
- **خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى**: جيل سيء جاء بعدهم، ورثوا علم الكتاب لكنهم يفضلون متاع الدنيا الزائل.
- **ودرسوا ما فيه**: والحال أنهم قرأوه ودرسوه وعرفوا ما فيه من حق! مما يزيد شناعة فعلهم. والأصل في درسوا أي جعلوه دارسًا أي مجرّد آثار خالية من محتواها الأصليّ، وهذا ما يتقابل مع آية يمسّكون بالكتاب، فهذا هو المعنى الذي يرجح لدينا.
- **يمسّكون بالكتاب**: يتمسكون به ويعملون بأحكامه.
- **نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة**: رفعنا الجبل فوق رؤوسهم كأنه سحابة تظلهم (عند أخذ الميثاق)، وهذا لا يعني بالضرورة ما ذهب إليه المفسّرون من طيران جبل فوق رؤوسهم، بل أن ييسّر الله لهم جبلًا يظلّلهم.

- **وإذ أخـذ ربّـك من بني آدم من ظهورهم ذرّيـاتهم وأشـهدهم...**: هنا يذهب المفسّـرون أنّ هذه واقعة غيبية حدثت قبل خلق النـاس، ولكنّي أفهمها أنّها تعقيب على كلّ من عذّب من بني آدم أنّه أخذ لنفسه ذرّياتهم ليعبدوه، وقد شـهد الآباء والأسـلاف لله بالربوبية. وهذا ظاهر في الآيـات اللاحقة بـأنّ هذا لكي لا يقولوا إنّ آبـاءنـا كـانوا ضالّين واتّبعناهم.
- **انســلخ منها**: انســلخ من الآيات كما تنســلخ الحية من جلدها، أي تركها وتجرد منها بعد أن علمها.
- **أخلد إلى الأرض**: مال إلى شـهوات الدنيا وزينتها وركن إليها.
- **يلهث**: يخرج لسانه من التعب أو العطش (صفة للكلب)، وهي كناية عن استمرار حالته السيئة سواء وعظ أم لم يوعظ.
- **ذرأنا لجهنم**: خلقنا منهم فأكثرنا لجهنم (بســبب أعمالهم واختيارهم).
- **كالأنعام بل هم أضــل**: تشــبيه الغافلين بالبهائم في عدم الانتفاع بمداركهم، بل هم أشد ضلالًا منها.
- **يلحدون في أسـمائه**: يميلون بها عن الحق، بتحريفها أو تسمية الأصنام بها أو إنكارها أو وصف الله بما لا يليق،

وهذا لا علاقة له بما يسمّى حديثًا الإلحاد، فذلك هو الإنكار أو عدم التصديق.

- **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**: سنأخذهم بالعقوبة درجة فدرجة من حيث لا يشعرون أنه استدراج.
- **وأملي لهم إن كيدي متين**: أمهلهم وأمدّ لهم في النعم، فإن تدبيري قوي محكم لا يفلت منه أحد.
- **جِنّة**: جنون، وهو كلّ علّة خفيّة لا تظهر على جسم الإنسان لكنّها باطنيّة.
- **أيان مرساها**: متى وقت وقوعها وثبوتها؟
- **لا يجليها لوقتها إلا هو**: لا يكشف عنها ويوضح وقتها المحدد إلا الله.
- **ثقلت**: أي أمرها عظيم وشديد على أهل السماوات والأرض، أو علمها ثقيل عليهم.
- **كأنك حفي عنها**: كأنك كثير السؤال والبحث عنها شغوف بمعرفتها.
- **هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها**: أي هو الذي خلقكم من جنس واحد، أو نوع واحد، ومنه أزواجكم، ثم يذكّر في الآيات اللاحقة أنّ أبويه كانا يطلبان من الله (ربّهم) أن يأتي ابنهما على أفضل هيئة.

- **تغشّاها**: جامعها.
- **حملًا خفيفًا فمرت به**: حملًا في أوله لا تشعر به وتعيش حياتها طبيعية.
- **أثقلت**: دخلت في الشهور الأخيرة وثقل حملها.
- **صالحًا**: أي ولدًا سوي الخلق تام الأعضاء، أو ولدًا صالحًا في دينه.
- **جعلا له شركاء فيما آتاهما**: أشركا بالله في هذه النعمة (الولد)، بنسبته لغير الله أو بتعبيده لغير الله أو بالتوجه لغير الله طلبًا لصلاحه.
- **عباد أمثالكم**: وهنا الكلام عن أسلاف يعبدون وتقام لهم أصنام، فهم في الأصل عباد مثلكم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا (الأصنام أو كل ما يُعبد من دون الله).
- **يبطشون**: يضربون بقوة ويمسكون بشدة.
- **كيدوني فلا تنظرون**: دبروا لي ما شئتم من الكيد ولا تمهلوني! تحدٍ من النبي لهم ولآلهتهم.
- **وليي الله**: ناصري وحافظي هو الله.
- **يتولى الصالحين**: ينصرهم ويحفظهم ويتولى أمورهم.
- **خذ العفو**: اقبل ما سهل وتيسر من أخلاق الناس وأعمالهم ولا تكلّفهم ما يشق عليهم، أو اعفُ عمن أساء

إليك، وقد تكون بمعنى اتّخذ السكوت عنهم (العفو) مسلكا، وكلّ هذا جائز حسب السياق.

- **واؤمر بالعرف**: وادعُ إلى ما جرى عليه العرف من الأمور الخيّرة.
- **وأعرض عن الجاهلين**: لا تلتفت لسفاهاتهم ولا تجارهم في باطلهم.
- **ينزغنك من الشيطان نزغ**: يصيبنك من الشيطان وسوسة أو غضب أو استثارة. {نزغ} أي نخسة وإفساد، أي إذا غضبت وذهب فكرك بعيدًا.
- **فاستعذ بالله**: فالجأ إلى الله واطلب حمايته.
- **طائف من الشيطان**: وسوسة أو لمة أو خاطرة شاطنة (بعيدة عن الحقّ) تمر بالقلب.
- **تذكروا فإذا هم مبصرون**: تذكروا عظمة الله وعقابه فاستفاقوا من غفلتهم وأبصروا الحق والصواب.
- **وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون**: إخوان الشياطين (الكفار) تمدّهم شطحاتهم في الضلال وتزيد فيه، ثم لا تكفّ عن إغوائهم أو لا يتوقف الكفار عن غيهم.
- **لولا اجتبيتها**: هلّا اخترعتها واختلقتها بنفسك؟ (طلبهم آية محددة من النبي).

- **بصائر**: حجج وبراهين تنير القلوب وتبصرها بالحق.
- **فاستمعوا له وأنصتوا**: الأمر بالاستماع بتدبر والسكوت تعظيمًا للقرآن.
- **تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال**: صفة الذكر المطلوب: طلبا أو رهبة، وأقلّ من الجهر أي رفع الصوت، في أول النهار وآخره.
- **الذين عند ربك**: الملائكة المقربون.
- **لا يستكبرون... ويسبحونه وله يسجدون**: بيان لحالهم الدائم من التواضع والعبادة والتسبيح والسجود، كنقيض لحال المستكبرين من البشر وإبليس.

مقالة السورة (الأعراف)

تبدأ سورة الأعراف، أو كما لقّبت "سورة الكتاب"، بالتذكير بمادّة الوحي والآيات وهي الحروف المقطّعة، وبالتأكيد على مكانة الوحي المنزل {كتاب أنزل إليك}، وتطمئن قلب النبي {فلا يكن في صدرك حرج منه} من مهمة تبليغه للناس إنذارًا وذكرى للمؤمنين، رغم ما يواجهه من تحديات، خاصة طلب الآيات الحسية أو استعجال العذاب. وتأمر السورة الناس أمرًا مباشرًا باتباع هذا الكتاب وحده، ونبذ كل الأولياء الآخرين الذين يصدّون عن سبيل الله {ولا تتبعوا من دونه أولياء}،

منبهةً إلى أن أكثر الناس قليلًا ما يتذكرون أو يشـــكرون نعم الله. ولكي لا يظنوا أن الإعراض عن الذكر أمر هين، تذكرهم الســـورة بمصـــير القرى التي أهلكها الله بغتة {بياتًا أو هم قائلون}، فلم يكن لهم حينها إلا الاعتراف المتأخر بأنّهم ظَلموا {إنا كنا ظالمين}، مؤكدةً على حتمية المســـاءلة الشـــاملة يوم القيامة للرســـل والأمم {فلنســـألن... ولنســـألن...}، وعلى دقة الحســـاب القائم على الحق والعدل {والوزن يومئذ الحق}، وتذكّر بنعم الله في تمكين الإنسـان في الأرض وتوفير أسـباب العيش {مكناكم... وجعلنا لكم فيها معايش}، مقابل قلة شـكرهم المتكررة.

ثم تنتقل السورة إلى جذر الصـراع الأزلي بين الإيمان والكفر ألا وهو الاستكبار، فتعود إلى قصـة الخلق الأولى. تذكر كيف خلق الله النوع البشـــري وصـــوره في مراحل {خلقناكم ثم صورناكم}، ثم جاء الأمر للملائكة (كل قوى الكون المسخرة) بـالســـجود (بمعنى الطـاعـة والانقيـاد) لآدم (آدم النبي أو آدم النوع) تكريمًـا لـه، فـامتثـل الجميع {إلا إبليس} الـذي رفض واســتكبر بدافع عنصــري مادي {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقتـه من طين}. فكـان جزاؤه الطرد من منزلتـه العـاليـة {فـاهبط منهـا} والحكم عليـه بـالصـــغـار والهوان {إنـك من الصـــاغرين}. وبعد طلبه الإنظار إلى يوم البعث وإمهاله إلى "يوم الوقت المعلوم" الذي لا نعرفه على الحقيقة، أعلن إبليس خطته في إغواء ذرية آدم وإقعادهم عن الصـــراط المســـتقيم،

مستهدفًا شكرهم لله {ولا تجد أكثرهم شاكرين}، فجاء الحكم الإلهي بطرده {مذءومًا مدحورًا} والقضاء بملء جهنم منه ومن أتباعه أجمعين. ثم تنتقل القصة إلى آدم (كممثل للنوع البشري) وزوجه في الجنة، والتحذير من شجرة معينة (رمز للممنوع الذي يثير الطمع الذي أصله الكبر والشعور بالاستحقاق)، وكيف استغل الشيطان هذا الطمع فوسوس لهما، مقسمًا كاذبًا بالنصح، ومغريًا إياهما بالخلود أو الملك {أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين}، فخدعهما وأوقعهما في المعصية {فدلاهما بغرور}. كانت النتيجة الفورية هي انكشاف ضعفهم وحاجتهم للستر {بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان...}. لكنهما، على عكس إبليس، بادرا بالاعتراف بالخطأ والتوبة {ربنا ظلمنا أنفسنا...}، فجاء الأمر الإلهي بالهبوط إلى الأرض، مع تقرير حالة العداوة بين الإنسان وإبليس (والشيطان مجموعة أوسع من الجنّ أو الأبالسة فهي تشمل الإنسان، مجرّد حالة الشطح وبُعد المأخذ والغور"، وأن الأرض هي مستقرهم ومتاعهم إلى حين. وتختم القصة بتوجيه مباشر ورمزي لبني آدم: لقد أنزل الله لكم اللباس الحسي الساتر والزينة، ولكن الأهم هو {لباس التقوى ذلك خير}، مع التحذير مجددًا من فتنة الشيطان.

بعد تأسيس هذا الصراع الجوهري، تبدأ السورة في تفنيد المنطق الأعوج للمشركين الذين يبررون فواحشهم بالتقليد الأعمى والافتراء على الله {قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا

بها}. فتؤكد أن الله لا يأمر بالفحشاء، بل {أمر ربي بالقسط}، وتدعو لإخلاص الدين له وحده والتوجه إليه عند كل مسجد (موضع عبادة). وتبين سنة الله في انقسام الناس إلى فريق مهتدٍ وفريق ضالّ بسبب اتخاذهم الشياطين أولياء وانقيادهم لحالة الشطن هذه، وهم يحسبون أنهم مهتدون. وتأمر بأخذ الزينة عند المساجد، وتبيح الطيبات وتنهى عن الإسراف، وتستنكر تحريم ما أحل الله من زينة ورزق طيب، موضحة أن هذه الطيبات للمؤمنين في الدنيا وستكون خالصة لهم يوم القيامة. ثم تحدد المحرمات الحقيقية حصرًا: الفواحش، الإثم، البغي بغير الحق، الشرك، والقول على الله بغير علم. وتقرر أن لكل أمة أجلًا محتومًا، وأن النجاة عند مجيء الرسل تكون لمن اتقى وأصلح سابقًا قبل ظهور الحقّ، بينما مصير المكذبين المستكبرين هو النار. وتتساءل: {فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته}؟ مبينةً أن هؤلاء سينالهم ما كُتب لهم حتى تأتيهم ملائكة الموت فيعترفون بضلال شركائهم وكفرهم.

ثم تفصّل السورة في مشاهد القيامة ومصائر أهلها. تصف دخول الكافرين النار فوجًا بعد فوج، وأنّ بعضهم يلعن بعضًا، وتخاصم الأتباع والقادة (إشارة إلى أهل مكّة بعدم اتّباع قادتهم) وتبادلهم للّوم وطلب العذاب المضاعف للقادة، والردّ بأنّ العذاب للجميع. وتؤكّد استحالة دخولهم الجنة بتشبيه بليغ {حتى يلج الجمل في سم الخياط} وهو تشبيه سبق أو ورد على

لسان يسوع حول الأغنياء المستكبرين، وتصف عذابهم الحسي من فوقهم وتحتهم {مهاد... غواش: جمع غاشية}. وفي المقابل، تصف حال المؤمنين في الجنة، مؤكدة أن التكليف كان في حدود وِسعهم وطاقتهم، وأنّ قلوبهم في الجنّة مطهّرة من الغل، وأنهم يعترفون بفضل الله في هدايتهم، ويُناديهم الملائكة تكريمًا بأنّ الجنة ميراث لهم بأعمالهم.

ثم تصور الحوار بين أهل الجنة وأهل النار، واعتراف أهل النار بالحقّ، وإعلان المؤذن بلعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيله ويريدون الإبقاء على النظام المعوجّ ويدفعون الناس نحو إنكار الآخرة. وتصف حال أهل الأعراف (وهم الأرجح ملائكة على مكان مشرف)، الذين يميزون أهل الجنة والنار بسيماهم، يسلّمون على أهل الجنة ويطمعون في دخولها، ويستعيذون من مصير أهل النار، ويوبّخون زعماء الكفر على استكبارهم وجموعهم التي لم تغن عنهم شيئًا، ويشيرون إلى المؤمنين المستضعفين الذين كان الكفار يقسمون أنهم لن يدخلوا الجنة، ثم يعلنون لهم ناقلين أمر ربّهم أنّهم يبقون فيها آمنين.

وتصور مشهد استغاثة أهل النار اليائسة وطلبهم للماء أو الرزق، وردّ أهل الجنّة بأن الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرتهم الحياة الدنيا، وأنهم اليوم منسيون كما نسوا لقاء هذا اليوم. وتختم هذا المشهد بالتأكيد

على أن الله أقام الحجة بإرسال كتاب مفصل، وأن الكافرين لا ينتظرون إلا تحقق وعيده، وعندها سيندمون ويطلبون الشفاعة أو العودة للدنيا، ولكن هيهات، فقد خسروا أنفسهم وضاعت أمانيهم وافتراءاتهم.

وبعد هذا العرض للمصائر، تعود السورة لتأكيد عظمة الله وقدرته وتدبيره للكون: خلق السماوات والأرض، استواؤه على العرش، تعاقب الليل والنهار، تسخير الأجرام السماوية، وانفراده بالخلق والأمر. وتوجه المؤمنين إلى كيفية الدعاء بتضرع وخفية وعدم اعتداء، وبالخوف والطمع، مع النهي عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، ووعدهم بقرب رحمة الله للمحسنين. وتضرب مثلًا بقدرته على البعث بإحياء الأرض الميتة بالمطر الذي تسوقه الرياح، ثم تمثل للقلوب بالبلد الطيب الذي يخرج نباته طيبًا بإذن ربه، والبلد الخبيث الذي لا يخرج إلا نكدًا، مؤكدة أن الله يصرف الآيات لقوم يشكرون.

ثم تبدأ السورة في سرد قصص الأنبياء بتفصيل أكبر، كأمثلة تطبيقية للسنة الإلهية في مواجهة التكذيب والاستكبار. تستعرض قصة نوح ودعوته للتوحيد، واتهام الملأ له بالضلال، ورده عليهم بأنه رسول أمين، وتكذيبهم له ونجاته ومن معه وإغراق الباقين. ثم قصة هود مع عاد، ودعوته للتوحيد، واتهام الملأ له بالسفاهة والكذب، وتذكيره لهم بنعم

الله وقوتهم، وإصرارهم على الشرك وتحديهم له، ونجاته ومن معه وهلاك عاد بالريح. ثم قصة صالح مع ثمود، ودعوته للتوحيد، وتقديمه الناقة كآية، وتحذيرهم منها، واستكبار الملأ وتكذيبهم وعقرهم للناقة، وأخذهم بالرجفة وهلاكهم. ثم قصة لوط ونهيه قومه عن الفاحشة التي لم يسبقوا بها، وردهم الساخر بإخراجه ومن معه لأنهم يتطهرون، ونجاته وأهله مع استثناء زوجه التي كانت في المعذّبين ولم يكن لها أن تنجو، وهلاك قومه بالمطر (الحجارة). ثم قصة شعيب مع مدين، ودعوته للتوحيد وإيفاء الكيل والميزان وعدم الإفساد والصد عن سبيل الله، وتهديد الملأ المستكبرين له وللمؤمنين بالإخراج أو الإعادة إلى الكفر، وثبات شعيب وتوكله على الله ودعاؤه بالفتح، وأخذهم بالرجفة وهلاكهم كأن لم يقيموا فيها من قبل.

وتعقب السورة على هذه القصص المتتالية ببيان سنة الله في اختبار الأمم بالشدة والرخاء، وكيف أن الرخاء قد يؤدي إلى الغفلة ونسيان عبر التاريخ، والتأكيد على أن الإيمان والتقوى هما شرط البركات، وأن التكذيب يؤدي إلى الأخذ المفاجئ، مع التحذير الشديد من الأمن من مكر الله، والدعوة للاعتبار بمصائر السابقين، وختم هذا المقطع بشهادة عامة بأن أكثر الأمم لم يفوا بعهدهم وكانوا فاسقين، أي ذلك العهد الذي قطعوه للنبيّ بالإيمان به إذا رأوا الآية الصريحة.

ثم تقدم السورة النموذج الأكثر تفصيلًا وهو قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل. تبدأ بإرسال موسى بالآيات إلى فرعون وملئه وظلمهم بها، وعرض موسى لرسالته وطلبه إرسال بني إسرائيل، وتحدي فرعون وطلبه للآيات، وإظهار موسى لآيتي العصا واليد البيضاء، واتهام الملأ له بالسحر والتآمر، وجمع السحرة للمواجهة، وإيمان السحرة بعد رؤية الحق، وتهديد فرعون لهم بالتعذيب والصلب، وثبات السحرة ودعائهم بالصبر والموت على الإسلام. ثم تذكر تحريض الملأ لفرعون ضد موسى وقومه، وإعلان فرعون استمرار التنكيل ببني إسرائيل، وأمر موسى لقومه بالاستعانة بالله والصبر واليقين بالعاقبة الحسنة. ثم تذكر أخذ آل فرعون بالقحط والنقص لعلهم يتذكرون، وتطيّرهم (تشاؤمهم) بموسى، وإصرارهم على الكفر مهما جاءتهم من آية، وإرسال الله عليهم الآيات المفصلات (الطوفان، الجراد...) واستكبارهم وإجرامهم، وتكرار طلبهم من موسى الدعاء لكشف العذاب مع وعود كاذبة بالإيمان، ثم نكثهم للعهد بعد كشفه، فكان الانتقام الإلهي بإغراقهم في اليم (الماء العظيم نهرًا أو بحرًا). وتذكر السورة توريث بني إسرائيل المستضعفين أرض المشرق والمغرب المباركة بسبب صبرهم، وتدمير حضارة فرعون.

لكن القصة لا تنتهي بالنجاة، بل تتبع ببني إسرائيل أنفسهم بعد عبور الماء، وكيف طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهًا كالأصنام التي رأوها! وتوبيخ موسى لهم وتذكيرهم بنعم الله.

ثم تذكر ذهاب موسى لميقات ربه وتكليمه، واستخلافه لهارون، وطلبه الجريء لرؤية الله متأثّرًا بدعوى قومه لتجسّد الإله، ورفض الله لذلك وتجلّيه للجبل فجعله دكًا وصعق موسى ثم توبته وإيمانه، واصطفاء الله له وتكليمه وأمره بأخذ الألواح بقوة. ثم تحذر السورة من مصير الفاسقين، وتبين أن الاستكبار يحجب عن فهم الآيات ويؤدي لاختيار طريق الغي.

وتفصل في قصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل في غياب موسى، وغضب موسى الشديد عند عودته وإلقائه الألواح وجذبه لأخيه، ودفاع هارون بأنه استُضعف وكاد يُقتل، ودعاء موسى لنفسه ولأخيه، ووعيد الله لمن اتخذ العجل بالغضب والذلة، ثم فتح باب التوبة بعدها لمن تاب وآمن. وتذكر اختيار موسى لسبعين رجلًا ليعذّبهم الله على أيدي قومهم (هذا نعرفه من موضع آخر في القرآن) وأنّهم ذعروا ذعرًا شديدا "أخذتهم الرجفة"، ودعاء موسى ربه لهم.

ثم يأتي الحديث عن رحمة الله الواسعة التي كُتبت للمتقين الذين يؤمنون ويتبعون الرسول النبي الأمي الموصوف في التوراة والإنجيل، وتعداد صفاته ورسالته العالمية التي تحل الطيبات وتحرم الخبائث وترفع الأعباء، وبيان فلاح من يتبعه. ثم تعود لذكر بني إسرائيل وتقسيمهم أسباطًا، ونعم الله عليهم في التيه (تفجير العيون، تظليل الغمام، المن والسلوى)، ثم أمرهم بدخول القرية وقول كلمة التوبة (حطة: حطّ عنّا

خطايانا) ودخول الباب خاضعين، وكيف بدل الظالمون منهم القول فعوقبوا بالعذاب. ثم قصة أصحاب السبت الذين اعتدوا بالصيد يوم السبت فحرّم عليهم، وكيف انقسم الباقون إلى فرقة تنهى عن السوء وفرقة يائسة تقول {لم تعظون قومًا الله مهلكهم}، وكيف نجّى الله الناهين وأخذ الظالمين بعذاب شديد، ثم حكمهم عليهم بالإقراد خاسئين (بالذل والهوان). وتذكر السورة إعلام الله بأنه سيسلط على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة بسبب عصيانهم المستمر. وتذمّ الأجيال اللاحقة منهم التي ورثت الكتاب ولم تعمل به وأخذت عرض الدنيا الأدنى، مع تذكيرهم بميثاق الكتاب، ثم تثني على المتمسكين بالكتاب والمقيمين للصلاة. وتذكرهم بأنّ الله ألجأهم إلى جبل علا فوقهم عند أخذ الميثاق، فكان كأنّه مظلّة لهم.

وأخيرًا، تعود السورة لتذكير البشرية بالميثاق الأول {ألست بربكم} كحجة عليهم. وتضرب مثلًا بالذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها واتبع هواه كالكلب اللاهث لا يغيّر النقاش سلوكه، ليكون عبرة لمن يكذب بالآيات بعد معرفتها. وتؤكد على سنة الهداية والضلال، وتصف أكثر أهل النار بأنهم كالأنعام، بل أضل لتعطيلهم مداركهم. وتأمر بدعاء الله بأسمائه الحسنى وترك الملحدين فيها. وتشير إلى وجود أمة قائمة بالحق دائمًا. وتؤكد سنة الاستدراج والإملاء (إمداد) للمكذبين ومتانة كيد الله. وتدعو الكفار للتفكر في حال النبي مع نفيها شكوكهم عنه بأنّ مصاب بالجنون، والتفكّر في ملكوت السماوات والأرض

واقتراب الأجل، وتتساءل عن إمكانية إيمانهم بعد القرآن. ثم تجيب عن سؤالهم المتكرر عن الساعة بأن علمها عند الله وحده وتأتي بغتة، وتحدد مهمة النبي كنذير وبشير. وتختم بآيات فيها توجيهات أخلاقية عالية في التعامل مع الناس {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} أي اختيار الصمت عم مجادلة المشوّشين، والأمر بالخير لتوعية الناس، وتهميش من يختارون الجهالة بالإعراض عنهم، وفي التعامل مع وسوسة الشيطان (حالة الشطحان) باللجوء إلى الله {فاستعذ بالله}، وفي أهمية الذكر الدائم لله بأشكاله وأسبابه، والتحذير من الغفلة، وتقديم الملائكة كنموذج للتواضع والعبادة الدائمة.

المعنى الشمولي (الأعراف)

تقدم سورة الأعراف رؤية بانورامية شاملة للصراع الدائم بين المصدّقين والمكذّبين، وتعلن أنّ أساسه الاستكبار، وبين اتباع الوحي الإلهي (الكتاب والميثاق) والسير وراء الهوى والشيطان والتقليد الأعمى. تستعرض السورة هذا الصراع منذ بدء الخليقة (آدم وإبليس) مرورًا بسلسلة طويلة من قصص الأنبياء مع أقوامهم (نوح، هود، صالح، لوط، شعيب) وصولًا إلى التجربة المفصلة والمكرّرة لموسى وبني إسرائيل، كاشفةً عن سنة إلهية ثابتة في إرسال الرسل بالبينات، ومواجهتهم بالتكذيب خاصة من الملأ المستكبر، وابتلاء الأمم بالشدة والرخاء، وحلول العذاب الحتمي

بالمكذبين بعد الإمهال، ونجاة المؤمنين الصـــابرين لتكون لهم العاقبة.

وفي خضم هذا السرد التاريخي، تؤسس السورة لمبادئ الدين الأســـاســـية: التوحيد الخالص، وضـــرورة اتباع ما أنزل الله وحده، والعدل، والتقوى، والصـــبر، والتوبة والأوبة، والأمر بالمتعارف عليه من الخير، ومكارم الأخلاق في التعامل مع الآخرين. كما تفصّـل في مشـاهد القيامة ومصـائر أهل الجنة وأهل النار وأصـــحاب الأعراف، لتؤكد على حتمية الجزاء وعدالة الميزان. وتختم الســـورة بتأكيد رســـالة القرآن ونبوّة النبي محمد، وتقديم توجيهات عملية للمؤمنين في الثبات على الحق، والتمســـك بالكتاب، وذكر الله، ومواجهة وســـاوس الشـيطان وإعراض الجاهلين، لتكون دعوة متكاملة للعودة إلى الميثـاق الأول، وتـدبر آيـات الكتـاب، واتبـاع ســـبيل الهـدى والفلاح.

منذ أمر "اقرأ" الذي دشـــن نزول الوحي، مرورًا بالســـور القصـيرة ذات الإيقاع السـريع والإنذار الصـاعق في المرحلة السـرية وبدايات الجهر، وصـولًا إلى السـور الأطول والأكثر تفصـيلًا وجدالًا كسـورتي "ص" و"الأعراف"، يتكشـف أمامنا بناءٌ متنامٍ ومنظومة متكاملة يقدمها القرآن الكريم. لم تكن هذه الرســـالة مجرد أوامر ونواهٍ متفرقة، بل هي "دين" بالمعنى الشـامل الذي عرفناه سـابقًا: نظام حياة، رؤية للكون والإنسـان والتاريخ، ومنهاج للسـلوك الفردي والجماعي، يسـتجيب لواقع الدعوة ويتفاعل معه، ويفند شـــبهات المعارضـــين، ويؤســـس لمجتمع جديد قائم على الإيمان والعدل والرحمة.

الآن، وقد وصـــلنا في رحلتنا التتبعية لترتيب النزول التقريبي إلى نهاية سـورة الأعراف (السـورة التاسـعة والثلاثون في هذا الترتيب)، يمكننا التوقف لحظة لنحاول لملمة الخيوط ورصـــد "المقولات الكبرى" التي شـكلت قوام هذه الرســالة الإلهية في طورها المكي المتقدم. إن هذه المقولات، المستخلصـة حصـراً من خلال منهجنـا في "تجـديـد البيـان" القـائم على لغـة النص وسـياقه الداخلي، وبعيدًا عن الروايات الخارجية غير الموثوقة أو التأويلات التي تفرضـها سياقات لاحقة، تمثل جوهر "الدين" كما أراد الله أن يقدمه للناس في تلك المرحلة المفصـــلية من تاريخ الدعوة.

1. الله: واحدٌ أحد، ربّ العالمين، له الخلق والأمر

تتربع على قمة هذا البناء مقولة التوحيد الخالص والمطلق. الله، كما تقدمه هذه السور، هو {الله الواحد القهار} (ص)، {الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد} (الإخلاص). هو {رب العالمين} (الفاتحة)، ورب كل شيء ومليكه. هو الخالق الذي أبدع الكون {من العدم؟}، خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق ولم يخلقهما باطلًا (ص، الأعراف)، وهو الذي {استوى على العرش} يدبر الأمر ويُغشي الليل النهار في نظام كوني بديع (الأعراف). وهو الذي خلق الإنسان في {أحسن تقويم} (التين) من أصل واحد {نفس واحدة} ومن مادة متواضعة {طين} (ص، الأعراف)، ثم صوره وكرمه. علمه محيط بكل شيء {وما كنا غائبين} (الأعراف)، لا تخفى عليه خافية، يعلم ما توسوس به النفس وهو أقرب للإنسان من حبل الوريد (ق). قدرته لا تحد، يأخذ المكذبين {أخذ عزيز مقتدر} (القمر، ص)، وأمره نافذ كلمح بالبصر (القمر، ص)، وهو المتصرف الأوحد في الهداية والضلال {من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون} (الأعراف). ومع قوته وقهره، فهو {العزيز الغفار} (ص)، وهو {الغفور الودود} (البروج)، رحمته {وسعت كل شيء} ولكنه يكتبها ويخص بها المتقين المتبعين لرسله (الأعراف).

2. الكتاب والوحي: الذكر الحاسم والبيان المبين

هذا الإله الواحد يتواصل مع خلقه عبر الوحي، الذي يتجسد في {الكتاب} المنزل. القرآن هو {القرآن ذي الذكر} (ص)، هو الذكرى والهدى والرحمة والبصائر (الأعراف). أُنزل {على علم} (الأعراف)، وهو {قول فصل وما هو بالهزل} (الطارق)، وهو {نبأ عظيم} (ص). الغاية من إنزاله هي الإنذار والتبشير، والتذكير والتفكر والتدبر {ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} (ص). إنه الحجة الكافية والآية البالغة، ولا حاجة لآيات حسية أخرى لمن كان يريد الإيمان فعلًا (القمر). الحروف المقطعة في بدايات بعض السور (كـ {المص} في الأعراف) هي، في غالب الظن، تنبيه إلى مادة هذا الكتاب المعجز وأدوات بيانه. ويؤكد القرآن على ضرورة اتباعه وحده {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء} (الأعراف)، ويدعو للاستماع له والإنصات عند تلاوته لعل الرحمة تنال المستمعين (الأعراف).

3. النبوة والرسالة: البلاغ عن الله والصبر على الأذى

الرسل هم البشر الذين يصطفيهم الله ليبلغوا رسالاته {إني رسول من رب العالمين} (الأعراف). مهمتهم الأساسية هي الإنذار والتبشير {إن أنا إلا نذير وبشير} (الأعراف)، وتبليغ ما يوحى إليهم بأمانة ونصح {أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين} (الأعراف). لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا

ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه بالوحي {قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا... ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير...} (الأعراف)، ولا يطلبون أجرًا على رسالتهم وليسوا متكلفين أو مدّعين {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين} (ص). وهم مأمورون بالصبر على تكذيب أقوامهم وأذاهم {اصبر على ما يقولون} (ص)، ولهم في سير الأنبياء السابقين أسوة وعزاء. سنة الله المستمرة هي إرسال الرسل، وسنته أيضًا أنهم يواجهون بالتكذيب والاتهامات الباطلة (ساحر، كذاب، مجنون، به جنة، يريد أن يخرجكم من أرضكم...) خاصة من الملأ المستكبر.

4. الإنسان: خليفة مسؤول ومُبتلى بالاختيار

الإنسان مخلوق مكرم، خلقه الله بيديه (تشريفًا له) في أحسن صورة، ونفخ فيه من روحه، وأمر قوى الكون بالسجود له (بمعنى الطاعة والتسخير). حمله الله الأمانة وجعله خليفة في الأرض {إنا جعلناك خليفة في الأرض} (ص)، وزوده بأدوات المعرفة والتمييز (السمع والبصر والفؤاد والعقل واللسان). أخذ عليه الميثاق الفطري أو التاريخي المتجدد بربوبيته {ألست بربكم}، وأنزل له الكتاب ليكون هدى ونورًا. ومع هذا التكريم، فالإنسان مخلوق ضعيف، مجبول على الكبد والمشقة (البلد)، عجول (القيامة)، قليل الشكر والتذكر (الأعراف)، يطغى إذا استغنى (العلق)، ويتبع هواه (القمر، ص،

الأعراف)، ويتأثر بوساوس الشيطان الذي هو عدوه المبين (الأعراف). لكنه ليس مجبورًا على الشر، فله القدرة على الاختيار بين تزكية نفسه بالهدى والتقوى أو تدنيسها بالفجور والمعصية (الشمس). وهو مسؤول مسؤولية فردية كاملة عن اختياراته وأعماله التي ستوزن بميزان الحق يوم القيامة.

5. الصراع الجوهري: آفة الكبر والشقاق وجذورها الإبليسية

تُرجع السور المكية، خاصة "ص" و"الأعراف"، أصل الكفر والشقاق إلى آفة الاستكبار. النموذج الأول لهذا هو إبليس الذي رفض أمر الله بالسجود لآدم بدافع الكبر والعنصرية المادية {أنا خير منه}. هذا الاستكبار هو ما يمنع كفار مكة من قبول الحق {بل الذين كفروا في عزة وشقاق} (ص). هم يستكبرون عن اتباع بشر مثلهم {أنؤمن لبشرين مثلنا} (المؤمنون - وإن كانت لاحقة، فالروح واحدة)، وعن الخضوع لإله واحد {أجعل الآلهة إلها واحدًا} (ص)، وعن اتباع الآيات التي جاء بها الرسول {استكبروا عنها} (الأعراف). هذا الاستكبار يقود إلى الشقاق، أي المخالفة والمعاندة والابتعاد عن جادة الصواب، وإلى اتباع الأهواء والتقليد الأعمى للآباء. وفي المقابل، يبرز القرآن طريق الإيمان والتواضع والأوبة (الرجوع إلى الله) كسبيل للنجاة، متخذًا من توبة آدم وندمه {ربنا ظلمنا أنفسنا}، ومن أوبة داود وسليمان وأيوب، نماذج

للعبودية الحقة التي تتجاوز الفتنة والابتلاء بالرجوع المستمر إلى الله.

6. سنة الله في الأمم: دورات التاريخ ومصارع المكذبين

تقدم سورة الأعراف بشكل خاص بانوراما تاريخية واسعة تكشف عن سنن الله الثابتة في التعامل مع الأمم. يرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، فتقابلهم أكثر الأمم، وخاصة الملأ وأصحاب النفوذ، بالتكذيب والاستهزاء والتحدي وطلب تعجيل العذاب. يبتليهم الله بالشدائد لعلهم يتضرعون، ثم بالرخاء لعلهم يشكرون، ولكن الكثير منهم ينسون وينسبون الأمر لتقلبات الدهر {قد مس آباءنا الضراء والسراء}. يأخذ الله المكذبين بالعذاب بعد إقامة الحجة وانتهاء الأجل المحدد لكل أمة {ولكل أمة أجل}، ويكون الأخذ غالبًا مفاجئًا {بغتة} ومدمرًا {فقطعنا دابر الذين كذبوا}، وينجي الله الرسل والذين آمنوا معهم برحمته. قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ثم القصة المفصلة لموسى مع فرعون وبني إسرائيل، كلها تؤكد هذه السنة وتدعو للاعتبار بمصائر الغابرين {أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها...}. كما تظهر قصة بني إسرائيل أن النجاة من الظلم لا تعني العصمة من الزلل، وأن نقض العهد واتباع الهوى يمكن أن يقع حتى فيمن رأوا الآيات الكبرى، مما يستوجب التوبة الدائمة والتمسك بالكتاب.

7. منهاج الحياة: الإيمان والتقوى والعدل والإصلاح

في مقابل طريق الكفر والشقاق، ترسم السور معالم الطريق المستقيم:

- **الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر:** وهو أساس كل خير.
- **التقوى:** وهي وقاية النفس من الشر، وحذر دائم من مخالفة أمر الله، وهي شرط الفلاح ونيل الرحمة الخاصة.
- **العمل الصالح:** وهو ثمرة الإيمان والتقوى، ويشمل كل خير.
- **العدل والقسط:** في الحكم والمعاملات وإيفاء الحقوق {قل أمر ربي بالقسط}، {ولا تبخسوا الناس أشياءهم}.
- **الإصلاح ومحاربة الفساد:** {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها}.
- **الأخلاق الاجتماعية:** إكرام اليتيم، إطعام المسكين، التواصي بالحق والصبر والمرحمة، العفة عن الفواحش، الصدق، الأمانة.
- **الاعتدال ونبذ الإسراف:** {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا}.

- **العبادة الخالصة:** التوجه إلى الله وحده، وإخلاص الدين له، ودعاؤه تضرعًا وخفية، خوفًا وطمعًا، وذكره بالغدو والآصال، وتلاوة القرآن والاستماع له بتدبر وخشوع. (مفهوم الصلاة يتطور وسنفصله لاحقًا).
- **الأخلاق الدعوية:** الصبر على الأذى، أخذ العفو، الأمر بالعرف، الإعراض عن الجاهلين.

8. المصير المحتوم: جنة للمتقين ونار للطاغين

اليوم الآخر هو الحقيقة الكبرى التي يُبنى عليها كل هذا النظام. هو يوم الحساب الدقيق والجزاء العادل. الموازين توضع بالقسط، والسرائر تُكشف. لا ينفع مال ولا بنون ولا أنساب ولا أولياء من دون الله. المصير ينقسم بوضوح: المتقون الذين اتبعوا الذكر وآمنوا وأصلحوا لهم جنات عدن، نعيم مقيم، ورضوان من الله، وقلوب خالية من الغل، ورفقة طيبة، ورزق لا ينفد. والطاغون المكذبون المستكبرون لهم جهنم، عذاب شديد، حميم وغساق، ومهاد من نار وغواش من نار، وتخاصم ولوم وندم لا ينتهي، وهم منسيون فيها كما نسوا لقاء ربهم.

خاتمة: البيان المستمر... لمن يتذكر

إن هذه المقولات الكبرى، التي تبلورت عبر السور التسع والثلاثين الأولى في ترتيب النزول، تقدم رؤية شاملة ومتكاملة

للحياة والكون والإنسان. تؤسس لعقيدة التوحيد الصافية، وتوضح مهمة الرسل والغاية من إنزال الكتب، وتكشف عن طبيعة النفس البشرية وصراعها الداخلي والخارجي، وترسم سنن الله في التاريخ، وتضع معالم الطريق القويم أخلاقًا وعبادةً وسلوكًا، وتؤكد على حتمية المصير الأخروي. كل ذلك يدور حول "الذكر" الذي هو القرآن، والذي يظل يتحدى العقول ويدعو للتفكر والتذكر، مؤكدًا في ختام سورة الأعراف، كما في غيرها، أن حقيقته ستُعلم، ولكن {بعد حين}.